من روائع الأدب الأوروبي

ستيفان زفايغ

الليلة المُذهلة

وقصص أخرى

مكتبة ٥٠٠

المركز الثقافي العربي

ستيفان زفايغ

الليلة المُذهلة

وقصص أخرى

الكتاب
الليلة المُذهلة وقصص أخرى
تأليف
ستيفان زفايغ
ترجمة
محمد بنعبود
الطبعة
الأولى، 2018
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-883-1
جميع الحقوق محفوظة
© المركز الثقافي العربي
الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651
فاكس: 0522 305726 212+
Email: markaz.casablanca@gmail.com
بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01 750507 ـ 01 352826
فاكس: 961 1 343701+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

العناوين الأصلية للقصص:
Stefan Zweig
Phantastische Nacht
Geschichte in der Dämmerung
Die gleich-ungleichen Schwestern

مكتبة
t.me/t_pdf

ستيفان زفايغ

الليلة المُذهلة
وقصص أخرى

ترجمة: محمد بنعبود

المركز الثقافي العربي

الليلة المُذهلة

تمَّ العثور على التّداوين التّالية في علبة مخبّأة في سكرتارية البارون فريدريش ميكاييل فون ف. . . الذي قُتل في معركة رافا-روسكا[1] بعد أن خدم، خريف سنة 1914، عسكرياً برتبة ملازم في فرقة التّنانين النّمساوية. وبما أنّ أُسرته قد افترضت، بعد أن ألقت نظرة سريعة على العنوان، أنّ هذه التّداوين ليست سوى عمل أدبي، فقد عهدت بها إليّ كي أُعيد قراءتها وأهتمّ بنشرها. بيد أنّني أعتبر الأمر منبت الصّلة هنا بحكاية مُبتدَعَة وإنّما هي قصّة حقيقية عاشها الفقيد في أدقّ تفاصيلها. لذلك، فإنّني أنشر هنا هذا الاعتراف الحميم، مُقتصراً على تغيير الأسماء، دون أدنى زيادة أو نُقصان:

راودتني هذا الصّباح فجأة فكرةُ ضرورةِ أن أكتب لنفسي ما كان قد حصل لي تلك اللّيلة المذهلة، وأن

(1) Rava-Ruska مدينة أوكرانية. (المترجم)

أتتبّع الحدث في تطوره الطبيعيّ والكامل. منذ تلك اللّحظة جعلتُ أشعر بالحاجة غير القابلة للتّفسير إلى أن أُقدّم لنفسي هذه المغامرة بوضوح كامل، رغم أنّني أشكّ في قدرتي على رسم فرادة الأحداث التي عشتها حتى لو بشكل تقريبيّ لا غير. أنا أفتقر لما يُدعى الموهبة الفنّية، ولا تجربة لي في الأمور الأدبية. فباستثناء بعض الكتابات المتّسمة بالأحرى بطابعها الحماسي، والتي تعود إلى لحظة مروري **بالتريزيانوم**[1]، فإنّني لم أحاول قطّ أن أكتب. أنا لا أعرف مثلاً حتى ما إن كانت توجد تقنية يمكننا أن نتعلّمها لنرتّب الأحداث الخارجية وفق تتابعها الزّمني مع انعكاساتها الفورية على روحنا. كما أنّني أتساءل أيضاً ما إن كنت قادراً على قرن المعنى بالكلمة المناسبة له وإعطاء الكلمة معناها المضبوط، ومن ثمّة تحقيق هذا التّوازن الذي أشعر به بسهولة لدى كلّ سارد جيد أثناء قراءاتي. لكنّني لا أخطّ هذه السّطور إلّا لنفسي وليس غرضُها البتّة إفهامَ الآخرين ما لا أكاد أستطيع شرحه حتى لنفسي. إنّ هذه الأسطر ليست إلّا محاولة أُصفّي بها حدثاً، بصفة نهائية، فأُثبّته في معنى معيّن

(1) Theresianum، مؤسّسة أُنشئت سنة 1746 بمدينة فيينا لإعداد الموظّفين والضّباط والدبلوماسيين. (المترجم)

وأضعه أمامي فأُدركه على مختلف أوجهه؛ ذلك أنّه حدث يشغلني دون انقطاع ويُقلقني بعد أن أضحى على هذا القدر من التّخمّر المؤلم.

لم أتحدّث في الأمر لأيّ من أصدقائي لأنّني خشيت تحديداً أن لا أكون قادراً على إفهامهم المكانةَ الأساسَ التي يحتلّها هذا الموضوعُ عندي، وخجَلاً أيضاً من أن تكون حالة طارئة مثل هذه قد رجّتني وجعلتني أضطرب إلى هذه الدّرجة. ذلك أنّ هذا كلّه ليس في حقيقة أمره سوى تجربة عشتها وأعتبرها قليلة الأهمّية. لكنّني وأنا أكتب هذه الكلمات الأخيرة جعلت أفهم سلفاً كم هو صعب وملتبس بالنّسبة إلى إنسان عادي أن يختار أثناء كتابته الكلمات بحسب وزنها الحقيقي، وكم تكون واردةً إمكانيةُ سوء الفهم المرتبط بالكلمات الأكثر بساطة. وبالفعل، فإنّني عندما أصف تجربتي بأنّها قليلة الأهمية فإنّني لا أقصد بذلك إلّا المعنى النّسبي وانطلاقاً من مقارنتها بالتراجيديات العُظمى التي يكون لها تأثير على مصائر النّاس وشعوب بأكملها. كما أنّني أفهم ذلك، من جهة أُخرى، انطلاقاً من وجهةِ نظرٍ زمنية، لأنّ الأمر كلّه دار في ستّ ساعات مرّت مُسرعةً. لكن بالنّسبة إليّ، فإنّ هذه التّجربة التي كانت ضئيلة في ذاتها

وقليلة الأهمّية وتكاد تكون بلا دلالة، قد شكّلت حدثاً هو إلى هذه الدّرجة من الإذهال حتى أنّني إلى اليوم (أربعة أشهر بعد هذه اللّيلة المذهلة) لا أزال أتحرّق بسببها وأستنفر كلّ جهدي الذّهني كي أحتفظ بها في صدري؛ أُكرّر تفاصيلها كلّها يومياً وكلّ ساعة، لأنّها قد أضحت بشكل من الأشكال محور وجودي، لها أثر غير واعٍ على كلّ ما أصنعه أو أقوله. صارت أفكاري مشغولة فقط بتكرار تواردها المفاجئ والمستمرّ من دون انقطاع، فأؤكّد لنفسي بسبب هذا التّكرار أنّها ملك لي. وأنا الآن أفهم أيضاً فجأة ما لم أكن منذ عشر دقائق، عندما أمسكت بالرّيشة، قد استشعرته بطريقة واعية: ذلك أنّني لا أشرع في الكتابة فقط كي أُثبّت هذه التّجربة أمامي بيقين مُطلق وبطريقة موضوعية، إن صحّ التّعبير، كي أستمتع بها مرّة ثانية وأُحسّ بها وأستبقيها في الوقت نفسه في ذهني؛ أنا عندما قلت قبل قليل إنّني إن كنت أكتبها فلكي أُصفّيها وأُنهي أمرها، إنّما كنت أُعبّر عن نقيض الحقيقة تماماً، لأنّ ما أُريده تحديداً هو أن أجعل ما عشته بسرعة يغدو أكثر حيوية وأن أضعه بالقرب منّي بشكل من الأشكال ساخناً ولاهثاً كي يكون بمستطاعي أخذُه بين أحضاني كلّ حين. أوه! أنا لا أخشى نسيان

ولو ثانية واحدة من فترة ما بعد الظّهر الثقيلة تلك ومن هذه اللّيلة المذهلة. أنا لست في حاجة إلى معالم في الطّريق وإلى إشارات أعتمد عليها كي أجتاز في ذاكرتي، خطوة بخطوة، درب هذه السّاعات التي عشتها. أنا أجد نفسي، مثل السّائر في النّوم، وفي كلّ لحظة، في أجوائها آناء اللّيل وأطراف النّهار، وأتبيّن كلّ تفصيل منها بهذا الوضوح الذي لا يعرفه إلّا القلب وليس المجرى المتدفّق للذّكرى. ويمكنني أيضاً أن أرسم في كرّاستي حواشي أدنى ورقة من هذا المشهد الربيعي المخضرّ. أنا لا أزال أُميز حتى الآن بلطف، في فصل الخريف الذي نعيشه، البخارَ النّاعم والمغبّر الصّاعد من شجيرات الكستناء المورّدة. أنا إذاً، إن كنت أصفُ الآن هذه اللّحظات فليس خشيةَ ضياعها، وإنّما لأتلذّذ بأن أحياها من جديد. ثمّ فإنّني إن كنت سأعرض لنفسي اليوم مراحل هذه اللّيلة في تعاقبها الزمني المضبوط، سأكون مُضطرّاً للانتباه حتى أحترم نظامها، لأنّني ما أن أُفكّر في التّفاصيل، حتى أشعر دائماً بنوع من الافتتان وينبعث في روحي تشنّج فأجدني مُضطرّاً للاحتفاظ بصور ذكرايَ حتى لا تختلط ببعضها فتغدو مثل دخان ملوّن. دائماً ما أعيش من جديد، وباحتدام مشغوف، هذه

التّجربة، منذ اليوم السّابع من يونيو 1913 الذي استقللت ذات بَعدَ ظُهرٍ منه عربةً. . .

لكنّني أقول مرّة ثانية إنّ عليّ أن أكفّ عن هذا (أنا أعي ذلك) لأنّني أُلاحظ سلفاً، مرعوباً، غموض الكلمة الواحدة الوحيدة وتعدّدَ معانيها. الآن فقط، وقد اضطررت للمرّة الأولى أن أحكي أمراً بطريقة مُنسجمة، أُلاحظ كم هو صعب أن نُثبّتَ في شكل بعينه انجرافَ الأشياء الذي يُميّز حياة كلّ شخص. لقد تحدّثت لتوّي بضمير المتكلّم المفرد فقلت إنّني قد استقللت يوم سابع يونيو، بعد الظّهر، عربةً. لكنّ هذا الضّمير يُثير سلفاً إبهاماً لأنّني قد كففت منذ زمن طويل عن أن أكون «أنا» الذي كنته سابقاً، يوم سابع يونيو، رغم أنّ أربعة أشهر فقط قد انصرمت مُنذئذ، ورغم أنّني لا أزال أسكن شقّة هذا الـ«أنا» الذي كان وأنّني أكتب على طاولته الخاصّة وبريشته الخاصّة وكفّه نفسها. أنا مُختلف تماماً عن كائن ذلك الزّمن، وقد صرت كذلك تحديداً بسبب هذه التّجربة. إنّني أراه من الخارج ببرود تامّ وكأنّه غريب عنّي، وبمستطاعي وصفه وكأنّه مُرافق لي في اللّعب، أو كأنّه رفيق أو صديق أعرف عنه أموراً كثيرة، بل أعرف حتى ما هو أساسيّ منها، لكنّني قد صرت منذئذ مُختلفاً

عنه تماماً. يُمكنني أن أتحدّث عنه وأن أوبّخه وأن أدينه حتى، دون أن أُلاحظ أنّنا هو وأنا لم نكن نشكّل ذات يوم سوى كائن واحد.

لم يكن الرّجل الذي كنته عندئذ يتميز إلّا قليلاً، على المستوى الخارجيّ كما الدّاخلي، عن غالبية النّاس المنتمين إلى فئته الاجتماعية، والذين اعتدنا عندنا في فيينا أن نُسمّيهم «المجتمع الرّاقي»، دون فخر خاصّ، وإنّما فقط لأنّ ذلك يُعدّ من باب تحصيل الحاصل. كنت أقترب من السّادسة والثّلاثين من عمري، وكان أبواي قد توفيا باكراً، قبل أن أبلغ سنّ الرّشد بقليل، وتركا لي ثروة كافية كي أُعفي نفسي منذئذ من التّفكير في العمل لأعيش أو أن أرسم مشواراً في الحياة. هكذا تحرّرت على حين غرّة من قرار كان عندئذ يُؤرّقني. كنت قد أنهيت بالفعل لتوّي دراستي الجامعية، وكنت على وشك اختيار مهنتي المستقبلية، وهو اختيار كان سيقع دون شكّ على الإدارة بفضل علاقاتنا العائلية وبسببٍ من ميلي -الذي كان قد أخذ يتأكّد باكراً- إلى تجربة تأمّلية من دون اهتزازات، فأتت ثروة أبويّ لتكرّسني الوريث الوحيد وتجعلني في حلّ من كلّ عمل مُهيّأ لي حتى أن أُشبع رغباتي في صرف المال وأن أعيش حياةً مريحة.

لم تكن لي قطّ طموحات، وكنت أيضاً قد رتّبت أن أبقى في البداية مُراقباً للحياة بضع سنوات وأن أنتظر اللّحظة التي أشعر فيها بالحاجة إلى العثور على مجال للعمل. لكنّني لم أكن أتجاوز هذا المستوى من الانتظار والتأمُّل، لأنّني كنت أملك كلّ ما أُريده ضمن الدّائرة الضّيقة لرغباتي، ما دمت لم أكن أشتهي شيئاً ذا طبيعة خاصّة. كانت مدينة فيينا قد جعلتني أنسى تماماً نيتي في أن أنخرط في نشاط فعلي، بما كانت تتصّف به من نعومة وحسّية، فتجعل -كما لا يحصل في أيّ مدينة أخرى- من التنزّه وأحلام اليقظة وفراغ البال والأناقة ضرباً من أضرب الامتياز الفنّي وهدفاً للوجود. كانت ملكَ يميني كلُّ متع رجل شابّ مرموق ونبيل وغنيّ، وفوق ذلك بلا طموح، وكنت أستمتع بلعب الورق والصّيد وأتسلّى بانتظام بالسّفر والتنزّه، وسُرعان ما رحت أستثمر هذا الوجود التأمُّلي بعناية تغدو يوماً بعد يوم ذات طابع علميّ، وبالنّتيجة رائقةً أكثر. ذلك أنّني رحت أُجمّع الأواني الزجاجية النادرة ليس استجابة لشغف حقيقي وإنّما تحقيقاً لمتعة امتلاك معارفَ جادّة في مادّة بعينها لا تتطلّب منّي أيّ مجهود، وزيّنت شقّتي بنوع خاصّ من المنحوتات الإيطالية من الحقبة الباروكية وبلوحات

لمناظر طبيعية على طريقة كاناليتو[1]، كان البحث عنها عند بائعي التّحف العتيقة أو شراؤها في المزاد العلنيّ ميسوراً لا خطر فيه ويُحفّزني كما يُحفّزني انطلاقي في جولة صيد. كنت أستسلم لعدّة تسالٍ مُفعماً باللّذة، دليلي هو ذوقي على الدّوام، ولا أُحجم إلّا في النّادر عن الاستماع إلى الموسيقى الجيدة وزيارة مُحترفات فنّانينا، فضلاً عن أنّ مغامراتي النّسائية كانت تُكلّل دائماً بالنّجاح. ففي هذا الجانب أيضاً كنت -مَقوداً بغريزتي في جمع التّحف، والتي كانت تعكس بشكل ما الفراغَ الدّاخلي الذي أُعانيه- كنت قد جمّعت في ذاكرتي ساعات عديدة رائعة ومحدّدة، فانتقلتُ من المتمتّع البسيط الذي كُنتُه في البداية إلى عارف عالِمٍ بالمجال. لقد عشت، بعامّة، أحداثاً كثيرة، ما كان يملأ أيّامي بشكل رائع ويُثري وجودي، فجعلت أُحبّ أكثر فأكثر هذا الجوّ الدّافئ والمريح لمرحلة شباب تعمُرُها المُثيرات، لكنّها لا تتقلقل البتّة. ولم تكن رغباتي تتجدّد، لأنّه كان بإمكان أمور صغيرة، ضمن نمط العيش

---

(1) جيوفاني أنتونيو كنال (Giovanni Antonio Canal)، المعروف باسم Canaletto (1697-1768)، رسّام إيطاليّ اشتهر بأعماله الفنية البانورامية عن مدينة فينيسيا (البندقية). (المترجم)

الهادئ الذي كنت أحياه، أن تُوفّر لي مُتعة حقيقية. كانت ربطة عنُق مُنتقاة بعناية تُشكّل عندي سلفاً ضرباً من المتعة، وقل الشّيء نفسه عن كتاب جيّد وعن نزهة في العربة، وتكفيني ساعة أقضيها برفقة امرأة كي أوفّر لنفسي سعادة مطلقة. غير أنّ ما كان يشكّلُ مُتعة حقيقية بالنّسبة إلي في هذا الضّرب من العيش هو أنّني لم أكن أسعى، بأي حال من الأحوال -مثلي مثل بذلة إنجليزية مُتقنة الصّنع-، إلى إثارة الانتباه في المجتمع. إلّا أنّني أعتقد أنّهم كانوا يُحبّون مُخالطتي، وأنّني كنت محبوباً، تتّسم نظرة النّاس إلي بالإيجابية، فكانت غالبية من يعرفونني يعتبرونني من بين الفانين السّعداء.

وأنا الآن غير قادر على القول ما إن كان رجل ذلك الزّمن، الذي أُجهد نفسي في عرضه أمامي، يعتبر نفسه سعيداً كما كان الآخرون يدّعون. ذلك أنّني الآن، بسبب كوني قد أمسيت أطلب، نتيجة لهذه التّجربة التي عشتها، من كلّ إحساسٍ معنى أكثر امتلاء وأكثر كثافة، صار يبدو لي أنّ كلَّ تقدير لما حصل في الماضي قد أضحى شبه مستحيل. غير أنّ بإمكاني القول بيقين إنّني لم أكن في تلك المرحلة من حياتي شقياً قطّ، لأنّ رغباتي لم تبقَ يوماً دون إشباع، وكلّ ما كنت أطالب الحياةَ به كنت

أحصل عليه دوماً. بيد أنّ القول إنّني كنت معتاداً دائماً على الحصول من القدَر على كلّ ما كنت أشتهيه، حتى أنّني ما كنت عدتُ أعثر على شيء آخر أُطالبه به، يمكن أن يؤدّي أكثر فأكثر إلى الخلوص إلى ضرب من الافتقار للكثافة وإلى حياة خابية في ذاتها. ما كان يستيقظ فيّ آنذاك، لا شعورياً -في لحظات مُتعدّدة تسودها تطلّعات بهيمة كنت أجد نفسي أثناءها في خضمّ ضرب من المعرفة غير المكتملة-، لم يكن في جوهره رغبات، وإنّما فقط الرّغبة في أن تكون لي رغبات، والحاجةُ إلى أن تكون لي نظرات أبعد وأقوى، وأن تكون لي طموحات لا تتحقّق بسهولة، والحاجة إلى أن أعيش بعمق أكبر، وربّما أيضاً الحاجة إلى أن أُعاني. وبتقنية معقولة للغاية كنت قد أقصيت من نمط عيشي كلّ شكل من أشكال المقاومة، فأفقَدَ هذا الافتقارُ للمقاومة حياتي حيويتَها. كنت أُلاحظ أنّ رغباتي تغدو أقلّ عدداً فأقلّ، وأنّها قد أضحت ضعيفة دائماً، وأنّ إحساسي قد أُصيب بضرب من الخَدَر (ربّما كانت هذه هي العبارة المناسبة هنا) فجعلت أُعاني من عجز معنويّ ومن عدم القدرة على مُباشرة الحياة بهمّة. تبيّنتُ في البداية هذه الفجوةَ انطلاقاً من بعض العلامات؛ انتبهت أنّني كنت قد جعلت أُهمل بتواتر يزداد شيئاً

فشيئاً، في المسرح كما في المجتمع، حضورَ بعض الفرجات العجيبة، ورحت أطلبُ كُتباً امتُدحت أمامي فأتركها بعد ذلك على طاولتي دون أن أفتحها أسابيعَ، وأنّني إن كنت قد واصلت اتّباع ذوقي في تجميع الأواني الزّجاجية والأشياء العتيقة وشرائها آلياً، فإنّني كنت قد كففت عن مُباشرة ترتيبها بعد ذلك فما عدت أستمتع بقطعة نادرة أقتنيها بعد البحث عنها زمناً طويلاً وبعد أن يكون الأمل في الحصول عليها قد ضؤُل.

غير أنّني لم أنتبه حقّاً وبطريقة واعية إلى هذا النضوب التدريجي، مهما يكن خفيفاً، لقوّة ردّ فعلي الذهني إلّا أثناء اجتيازي لظرف ما أزال أتذكّره بوضوح كامل. ففي ذلك الصّيف (بسبب كسلي الغريب الذي لم يكن ينجذب حقّاً لأيّ جديد) كنت قد بقيت في فيينا، فتلقّيت فجأة من مدينة مائية رسالة من امرأة كنت أُقيم معها منذ ثلاث سنوات علاقة حميمة، وكنت أشعر نحوها حتى بحبّ على نحو جادّ. كتبت لي في أربع عشرة صفحة مليئة بالمشاعر أنّها قد تعرّفت خلال الأسابيع الأخيرة إلى رجل أضحى عزيزاً عليها، بل غدا عندها كلّ شيء، إلى درجة أنّها قرّرت الاقتران به في فصل الخريف المقبل وأنّ على علاقتنا، نتيجة لذلك، أن تنتهي. إنّها

تُفكّر دون أسف، قالت، وحتى بسعادة في الزّمن الذي عشناه معاً، وأنّ ذكراي ستُرافقها في زواجها بوصفها أغلى شيء عرفته حياتُها الماضية، وهي تأمل أن أغفر لها قرارها الذي اتّخذته بهذه الطّريقة المفاجئة. ثمّ راحت الرّسالة ذات النّبر المؤثّر، بعد هذا الخبر الموضوعي، تتنامى مُتحدّثة بإلحاح مؤثّر، مُلتمسة منّي أن لا أغضب وأن لا أبالغ في المعاناة جرّاء هذه الردّة المفاجئة وتترجّاني أن لا أُحاول استبقاءها بالقوة وأن لا أرتكب حماقة في نفسي. ثمّ واصلت الرّسالةُ بحماس يزداد لحظة بعد لحظة: إنّها تدعوني إلى البحث عن عزاء بالقرب من امرأة أحسن منها وأن أكتب لها على الفور لأنّها قلقة من الطّريقة التي سأتلقّى بها هذا الخبر. ثمّ دوّنت بسرعة بقلم الرّصاص، بعد أن فرغت من رسالتها: «لا تُقدِم على أيّ سلوك مُتهوّر. افهمني واغفر لي». قرأتُ هذه الرّسالة، مُتفاجئاً في البداية بالخبر، ثمّ أعدت قراءتها، لكن مع شعور بالخجل سُرعان ما تَسَعّر إذْ أصبحتُ واعياً به، حتى أضحى رُعباً داخلياً؛ فأنا لم ينتبني أيُّ شعور من هذه المشاعر القوية ولنقل الطّبيعية التي افترضت صديقتي استيقاظَها فيّ، وكأنّ الأمر محتوم. لم أحسّ بأيّ منها، عدا في حدود ضئيلة جدّاً. لم يجعلني الخبر أُعاني ولم

أغضب من صديقتي ولم أُفكّر لحظة واحدة في فعلٍ عنيفٍ أرتكبه في حقّها أو في نفسي، فكان هذا البرود في المشاعر بلا مثيل حتى أنّه أصابني بالرّعب. ها هي ذي امرأة تبتعد عنّي بعد أن كانت رفيقة حياتي سنواتٍ، وبعد أن كان جسدها المتّقد المِطوَاع قد تناغم بليونة مع جسدي، حتى أنّ لُهاثها كان قد امتزج بلهاثي لياليَ طويلة، لكن لا شيء فيّ تحرّك. لا شيء فيّ احتجّ ولا شيء سعى إلى استعادتها ولا شيء استيقظ في حواسّي من كلّ ما افترَضَتِ الغريزةُ البسيطةُ لهذه المرأة أنّه أمر طبيعي لدى رجل حقيقي. في هذه اللّحظة وعيت بوضوح تامّ، وللمرّة الأولى، كم تطوّر فيّ مسارُ خمولي. كنت إنّما أتزحلق كما على ماء جارٍ ولامع دون أن أتشبّث بشيء، ودون أن أُحاول التجذُّر في أيّ مكان، فعلمت علم اليقين أنّ هذا البرود هو ضرب من برود الجثث والموت الذي لم تعْلُه بعد علاماتُ التّفسُّخ لكنّه أضحى مع ذلك خمولاً لا رجاء في الشّفاء منه. إنّه انعدامٌ للإحساس باردٌ ومُرعب مُشابه، بالنّتيجة، للّحظة التي تسبق الموت الحقّ، الموت الجسديّ، النّهايةَ، الظّاهرَ من الخارج أيضاً.

منذ هذه المرحلة جعلتُ أُراقبني بانتباه؛ شرعت أنتبه

إلى هذه اللّامبالاة التي تمكّنت منّي كما ينتبه المريض إلى علّته. ولمّا قضى، بعد ذلك بقليل، أحدُ أصدقائي وسرت خلف نعشه، جعلت أتسمّع روحي ما إن كان الألم يرجّها، وما إن كانت لا تزال في كياني بعض الألياف الحسّاسة، أخذاً في الاعتبار أنّ هذا الرّجل الذي عرفته منذ طفولتي كان قد مضى دون رجعة، لكن لا شيء تحرّك. كنت أعتبر نفسي شبيهاً بآنية من زجاج تبرق عبرها أوانٍ أخرى، لكنّها لا تحويها البتّة، فحاولت ما استطعت، في هذه المناسبة كما في أخريات كثيرة، أن أشعر بشيء، وحاولت ما وسعتني المحاولة أن أُعاند حساسيتي بمبرّرات فكرية، لكن لا جواب انبثق من هذه الصّلابة الدّاخلية. فارقتني كائنات وأقبلت النّساء وانصرفن، لكنّ ذلك كلّه لم يُؤثّر فيّ بأكثر ممّا يُؤثّر مطرٌ ينثال على زجاج النّافذة في شخص يجلس في غرفته. كان يقوم بيني وبين الحقيقة المباشرة مِغلاقٌ من زجاج لم أكن أملك القوّة لكسره بإرادتي.

ورغم أنّني كنت حينئذ أنتبه بوضوح إلى ذلك كلّه، فإنّ ما كنت أُلاحظه لم يبلبلني كثيراً، لأنّني كنت أستقبل، كما سبق أن قلت، بلا مبالاة حتى ما كان من هذه الأمور شديدَ الاتّصال بشخصي أنا. ما كان عاد لديّ ما يكفي من

إحساس يقظ حتى أُعاني من ذلك. كان يكفيني أن يكون هذا النّقص المعنوي غيرَ مُلاحَظٍ خارجياً، مثل العجز الجنسيّ للرّجل الذي لا يُفصح عن نفسه إلّا لحظةَ المُبَاشَرة. وغالباً ما كنت أستطيع وسط النّاس، بفضل تظاهري بالإعجاب بالأشياء، وبفضل مُبالغاتي المقصودة في الإسراف، أن أُخفيَ الطّريقة التي أشعر بها أنّني غدوت غير مُبالٍ ولا اهتمام لي بشيء. واصلتُ ظاهرياً العيش بطريقتي القديمة في أن أحيا حياة مُريحة وخالية من العوائق، فلم أُغيّر شيئاً من توجّهاتي. راحت الأسابيع والأشهر تنزلق خفيفة أمامي وتصير شيئاً فشيئاً سنوات. وذات صباح انتبهت في المرآة إلى شعرة رمادية في صدغي، فأحسست أنّ شبابي يستعدّ بروية لولوج عالم آخر. لكن ما كان الآخرون يُسمّونه شباباً كان قد انتهى فيّ منذ زمن طويل. ولذلك، فإنّني لم أُعانِ كثيراً من الوداع، لأنّ حتى شبابي الشّخصي لم أكن أحبّه حتى آسف على رحيله. كان حبّي لذاتي قد ظلّ أخرس فيّ، حتى في الأمور الأكثر حميمية. وبسببٍ من هذا الجمود الدّاخلي أضحت أيامي مُتشابهة دائماً رغم تنوّع انشغالاتي وتجاربي. كانت أيّامي تنضاف إلى بعضها البعض مُتساوية في كلّ شيء، فازداد عددها ثم اصفرّت مثل أوراق

الشّجر. وإنّه لأمر عادي جدّاً -لا شيء فيه خاصٌّ، ودون أدنى إرهاص داخليّ على ما هو آتٍ- أن يبتدئ أيضاً هذا اليومُ الفريد الذي أُريد الآن أن أصفه لنفسي.

كنت في هذا اليوم الموافق للسابع من يونيو سنة 1913 قد تأخّرت في الاستيقاظ أكثر من المعتاد، وقد استولى علي هذا الشّعور الخاصّ بيوم الأحد والذي ظلّ كامناً فيّ بطريقة لا واعية منذ طفولتي ومنذ سنوات التّلمذة. استحممت وقرأت الجريدة وتصفّحت كتباً ثم انصرفت للتّجوّل مجلوباً بالجو الصّيفي الحارّ الذي ولج غرفتي بلطف. عبَرت الـ«غرابن» محفوفاً بتبادل التّحيات مع أُناس من معارفي أو لِي بهم صلة. وبعد مُحادثة خفيفة مع إحداهنّ، ذهبت لأتناول غدائي عند بعض الأصدقاء. كنت قد رفضت كلّ مواعيد ما بعد الظّهر لأنّني أُحبّ أن تكون لي يومَ الأحد بعضُ السّاعات الحرّة فأصرفها فقط تبعاً لمزاجي اللّحظي ولنزواتي أو أتّخذ خلالها قرارات دون سابق تصميم. وعندما كنت عائداً من منزل أصدقائي، وعبرت «الرينغ»[1]، تولّتني السّعادة وأنا أُلاحظ جمال المدينة المشمولة بنور الشّمس فابتهجت برؤيتها مشرقة كما تكون في بداية الصّيف. كان النّاس

(1) Graben وRing، شارعان شهيران في مركز مدينة فيينا. (المترجم)

يبدون مُبتهجين كلّهم، مُفعمين بحبّ هذا المظهر الأحَديّ الذي كانت تتّصف به الحركة في الشّارع. تفاصيل كثيرة أثارت انتباهي ولا سيما تلك الطّريقة التي تنتصب بها الأشجار باخضرارها الجديد فوق الإسفلت وكأنّها باقات شاسعة. ورغم أنّني أمرّ تقريباً كلّ يوم من هذا المكان نفسه، فإنّ العدد الكبير من الرّجال المتجوّلين والمفعمين بهذا الإحساس الخاصّ بيوم الأحد بدا لي غاية في الرّوعة، فحدتني على الرّغم منّي الرّغبة في أن أوجد وسط الخضرة والبهجة ووسط الحركة. تذكّرت ببعض الفضول مظهر «براتر» الذي كانت تنتصب فيه آنذاك، في نهاية فصل الرّبيع وبداية الصّيف، أشجارٌ ضخمة كأنّها خدم بملابس خضراء، على يسار الممشى الرئيس الذي تعدو فيه العربات مُسرعة، عارضةً مقابضَ ورودها ثابتة على جمهرة المتجوّلين الأنيقين والمرتدين أبهى ملابسهم. وبما أنّني اعتدت على الاستسلام فوراً حتى لأبسط رغباتي، فقد ناديت أوّل عربة مرّت بالقرب منّي، وجواباً عن سؤال الحوذيّ حدّدت له الـ«البراتر» وجهةً لي. «الحضور السّباق، سيدي البارون، أليس كذلك؟» قال باحترام، كما لو أنّ الأمر مفروغ منه. في تلك اللّحظة تذكّرت أنّ سباقاً مُعتاداً كان سيُنظّم يومئذ، وأنّ مجتمع فيينا الرّاقي كلّه

يتواعد على التّلاقي فيه. يا له من أمر غريب! فكّرت وأنا أصعد العربة، كيف أكون قد أهملت منذ سنوات خلت يوماً مثل هذا أو كيف أمكنني أن أنساه؟ وكما يشعر المريض بجرحه أثناء قيامه بحركة، استشعرت بسبب هذا النّسيان عُمقَ اللّامبالاة التي أحكمت قبضتها عليّ.

* * *

كان الممشى الرّئيس شبهَ خال عندما وصلنا، فاتّضح أنّ السّباق كان قد بدأ منذ مدّة طويلة. لم نرَ ذلك الصّف الطّويل من العربات التي عادة ما تمشي فيه وهي في أبهى زينتها. كان بضعٌ منها فقط يعدو بلا انتظام وسط ضجيج حوافر عالٍ كأنّها تسعى إلى اللحاق بشيء ما. التفت الحوذيّ نحوي، من أعلى مقعده، وسألني إن كنت أرغب في جعل العربة تعدو أسرع. لكنّني أمرته أن يترك حصانيه يمشيان بهدوء لأنّه لا يسوؤُني في شيء أن أصل متأخّراً. لقد سبق لي أن رأيت كثيراً من السّباقات وغالباً ما استمتعت بالفرجة التي تُتيحها، فما عاد يُهمّني الآن أن أصل قبل بدايتها. كان كسلي يشعر بحلاوةِ أن أبقى متأرجحاً برفق في حضن العربة وأن أستشعر الرقّة الزّرقاء للجوّ والشّبيهة برقّة جوّ البحر الضّاج حول مَخْرِ سفينة، ناظراً بهدوء إلى شجيرات الكستناء الذّابلة التي كانت تلهو

أحياناً بإطلاقها في الرّيح السّاخن والمُداعِب أجزاء من ورودها فترفعها الرّيح برفق وتُزوبِعُها قبل أن يُرصّع الممشى كلّه بلونها الأبيض. كان جميلاً أن أُترك هكذا أُهدهَد، مُستنشقاً جوّ الربيع، عيناي مُغمّضتان، شاعراً بنفسي أتأرجح، ماضياً دون عناء. والحقّ أنّ العربة عندما رست أمام مدخل المضمار، تولّاني بعضُ الأسف، وفضّلت لو كنت عدت أدراجي كي أواصل الاستمتاع بجو هذا اليوم المبشِّر ببداية الصّيف. لكن ما عاد مجالٌ لذلك، لأنّ العربة كانت قد رست سلفاً أمام مضمار السّباق. أقبل نحوي ضجيج بهيم، فتناهى إلى سمعي ما يُشبه الهدير العميق لأمواج البحر قادماً من مُدرّجات الجماهير دون أن يكون بإمكاني مُشاهدة الحشد الذي كانت تصدر عنه هذه الأصوات المركّزة. عندئذ فكّرت فوراً في «أستوند» عندما نصعد من المدينة السُّفلى عبر المنمرّات الجانبية التي تُفضي إلى واجهة البحر، بينما نكون قد استشعرنا سلفاً الرّيح المالحة الضاجّة بحيوية حولنا وسمعنا صخباً بهيماً قبل أن يمتدّ البصر على المساحة الشّاسعة الرّمادية من زبدها وذات الأمواج الصّاخبة. يعيش الجمهور الآن لحظات متقدّمة من السّباق، وكان يمتدّ بيني وبين الممرّ المعشب الذي تعدو

الخيل فيه الآن دون شكّ، بُخارٌ مُلوّن وضاجّ من الجماهير والمُراهنين، وهم يهتزّون كما لو بفعل عاصفة داخلية. لم يكن بإمكاني مُشاهدة الحلبة، لكنّني كنت أُخمّن جريان كلّ مرحلة من مراحل السّباق، اعتماداً على صدى الاحتدام العالي جدّاً. كان الفُرسَان دون شكّ قد انطلقوا منذ زمن معيّن وقد تفرّقت المجموعة حتى أنّ بعضهم فقط هم من كانوا لا يزالون يُقاومون مُتشبّثين بالمقدّمة، لأنّ صيحات ونداءات حادّة كانت قد جعلت ترتفع سلفاً وسط الحشد الذي كان يعيش بطريقة مُلغزة حركية السّباق المحجوب عنّي. خمّنت، اعتماداً على اتّجاه الرّؤوس، الانعطافة التي كان قد أدركها بالتأكيد الفرسانُ والخيل، عند الاستدارة البيضويّة الشّكل لمستطيل حلبة السّباق، لأنّ كلّ هذا الخليط البشريّ كان يُركّز بصره، مُوحَّداً وكأنّه قد صار للمتفرّجين جميعاً عنقٌ موحّد مُمتدّ، في اتّجاه نُقطة لم أكن أراها. وكان يخرج من هذا العنق المنتصب بهذه الشّاكلة ضجّةٌ مُرتجّة تزداد فوراناً دون انقطاع، مُشكَّلَة من ألف صوت مُختلط، شبيهة باندفاع الموج. كانت هذه الضجّة البحرية تطول وتتضخّم، فملأت الفضاء كلّه حتى أدركَتِ السّماء الزّرقاء غير الآبهة. سبَرتُ بعض الوجوه، فبدت لي مُتشنّجة كما

لو بفعل صراع داخليّ، العيون ثابتة ترمي بشرر والشّفاه مختلجة والذّقن ممتدّ إلى الأمام بنهم والمنخران مُرتعشان مثل أنف الفرس. كان الأمرُ عندي، في الأوان نفسه، تسليةً وارتعاباً أن أتأمّل بدم بارد هؤلاء النّاس المأخوذين والفاقدين رشدهم. كان يجثم بالقرب منّي على كرسيّ سيّد أنيق في ملبسه، ذو وجه سمح لكنّه، وقد أضحى الآن مسكوناً بجنّي غير مرئيّ، فَقَدَ السّيطرة على نفسه وجعل يُلوّح بعصاه في الهواء، كأنّه يبغي تحفيز أمر ما وجَعْلَه يتقدّم. كان جسده كلّه (لوحة مُفرطة في طابعها المثير للسّخرية بالنسبة إلى المتفرّج) يُحاكي بشغفٍ السّباقَ السّريع جدّاً. يُحرّك باستمرار على مقعده كاحليه، كأنّهما على رِكابَينِ، وبدت كفّه اليمنى كأنّها تجلد الهواء بعصاه، بينما جعلت يُسراه تدعك بعصبية بطاقة بيضاء. راحت البطاقات التي من نفس اللّون تطفو وتزداد كثرة، فجَعَلت، كأنّها ضرب من المحاقن، تُفرغ فورانها على هذا الموج الرّمادي المصطخب بفعل العاصفة، وذي الضجّة التي تزداد تضخّماً. لا شكّ أن بعض الخيل كانت قد شرعت الآن، في المنعطف، تتضاغط فيما بينها لأنّ الصّياح تركّز فجأة في اسمين أو ثلاثة أو أربعة، تصرخ بها مجموعات من الجمهور وتُكرّرها باحتدام كما لو

كانت تُوجّه أمراً، فبدت هذه الصّرخات وكأنّها مُتنفّس فاءَ إليه هؤلاء المهووسون الهاذون.

بقيت وسط هذا الانفجار المحتدم بارداً كأنّني صخرة في خضمّ بحر هادر، ولا أزال إلى اليوم قادراً على أن أصف بدقّة ما كنت أشعر به لحظتئذ. أحسست في البداية بالطّابع المثير للسّخرية لكلّ هذه الحركات المكشِّرة، ثمّ باحتقار تهكُّمي للابتذال الذي يطبع هذه التّظاهرات، لكنّني أحسست بشيء آخر لا أستطيع الاعتراف به بسهولة؛ حدتني رغبة غير واضحة في أن أستشعر أنا أيضاً إثارة مثل هذه، واحتداماً للشّغف مشابهاً لاحتدامهم، وبالحياة الكامنة في هذا الإسراف في التعصُّب. ما المعمول، فكّرت، كي أنفعل أنا أيضاً بهذه الطّريقة وكي يحتدم إحساسي حتى يلتهب جسدي بهذه الشّاكلة وحتى ينبعث صوتي من فمي رغماً عنّي؟ لم أستطع تصوّر مبلغ ماليّ يَقدِرُ امتلاكي له على جعلي ألتهب هكذا ولا امرأة تستطيع أن تُثيرني بهذا الشّكل. لا شيء، لا وجود لأمر باستطاعته انتشالي من خدَرِ إحساسي وأن يُوقدَ فيّ احتداماً على هذا النّحو. فحتى أمام مُسدّس تُوجّه فُوهتُه نحوي فجأة، لن يخفق قلبي، لحظة قبل سكوته، بهذا التوحُّش الذي يخفق به قلب هذه الآلاف من النّاس

الموجودين حولي من أجل قبضة من الأوراق المالية. لكن من المفروض أن يكون حصان قد أضحى الآن بالقرب من العمود، لأنّ اسماً بعينه خرج من الضّجيج، في صرخة واحدة، أضحت أكثر ضغطاً فأكثر، تُطلقها آلاف الأصوات، شبيهةٍ بنبرةِ حبلٍ مشدود بحدّة، ثمّ تلاشت بعد ذلك فجأة. انطلقت الموسيقى صادحة وفجأة تفرّق الجمع. إنّها نهاية السباق. انتهت معركةٌ وتحلّل التّوتر الذي ساد حتى الآن، في اصطخاب موحّد أضحى احتدامُه ضعيفاً. انقسمت الكتلة التي لم تكن لحظة من قبل إلّا حُزمة واحدة من الشّغف الحارق إلى عدد كبير من الأشخاص المنفردين يعدون ويضحكون ويتحادثون. عادت للظّهور وجوه هادئة من خلف القناع المتشنّج للإثارة، ومن فوضى المراهنة التي كانت قد أذابت، لحظات، هؤلاء الآلاف من الأشخاص في سبيكة واحدة حارقة، وانبثقت من جديد تجمّعاتٌ مختلفة تشكّلت أثناء الحركة، فجعل أشخاص أعرفهم يُحيّونني وراح غُرباء يتفرّسون بعضهم بعضاً ويتبادلون حركات التّقدير والاحترام بكياسة باردة. تفحَّصَت النّساء بعضهنّ بعضاً رَافِلات في زينتهنّ الجديدة وألقى الرّجال عليهنّ نظرات مليئة بالرّغبة. كان هذا الفضول المتمدّن، الذي هو

الانشغال الحقيقي للّامُبالين، قد جعل يُعرب عن نفسه، فراح الحاضرون يبحث بعضهم عن بعض ويتبادلون الاهتمام ببعضهم ويُراقبون حضور النّاس وأناقتهم. لم يكن هذا الجمع الخارج لتوّه من الدّوار يدري ما إن كان هدف اللّقاء هو هذه الاستراحة المخصّصة للتنزّه أم الرّهان على الجياد في ذاته.

جعلت أمشي وأجيء وسط هذا الاصطخاب الدّافئ، فأحيّي بعضاً وأردّ تحيةَ بعضٍ، مُستنشقاً بلذّة (لأنّ هذا بالضّبط هو الجوّ الذي يكتنف وجودي) بخارَ العطر والأناقة الذي يطفو حول هذا الخليط المتنوّع الألوان، ومُتنفّساً بمتعة أكبر النّسيمَ القادم من هناك، من براري براتر ومن الغابة المجتاحة بالدّفء الصيفي، وهو يُلقي أحياناً بهبّاته وسط هذا الجمع ويُداعب ثوب الموسلين للنّساء وكأنّه مُنخرط في لعبةٍ معاكَسَة. أراد بعض معارفي محادثتي، ودعتني ديانا الممثّلة الحسناء بإشارة أن ألتحق بمقصورتها، لكنّني لم أستجب لأحد. ما عاد يهمّني اليوم أن أُحادث أحداً من هؤلاء المتمدّنين، فلقد كان أضحى عندي إزعاجاً أن أرى نفسي في مرآتهم. كنت أريد فقط أن أتذوّق هذه الفرجة، هذا النّشاطَ المشهي والحسّي السائد في هذه اللّحظة (لأنّ إثارة الآخر، وتحديداً بالنّسبة

إلى شخص لا مُبالٍ مثلي، هي أروعُ الفُرجَات). مرّت بضع نساء جميلات بالقرب منّي، وكنت أنظر بوقاحة، لكن دون أدنى رغبة داخلية، إلى أثدائهنّ الخفّاقة مع كلّ خطوة تحت الشفّ الشفيف، فأتبسّم في داخلي من انزعاجهنّ الذي يجمع في آن بين عدم الرّضا واللّذة، وهنّ يرين أنفسهنّ هكذا يُقيَّمن بمعيار حسّي واضح ويُعرَّين بوقاحة. لم تُثر انتباهي، حقّاً، أيٌّ منهنّ، لكنّه كان ضرباً من المُتعة بالنّسبة إلي أن أتقمّص هذا الدّور أمامهنّ وأن ألعب بفكرة -بفكرتهنّ- أنّني ألمس أجسادهنّ، فأُحسّ في أعينهنّ باهتزاز مغناطيسيّ؛ ذلك أنّ متعتي الإيروتيكية المفضّلة -شأني في ذلك شأن كلّ رجل يعرف كيف يبقى بارداً في داخله- كانت أن أستثير لدى الآخرين احتداماً واضطراباً، بدل أن أستدفئ أنا نفسي بما أفعل. كنت أُفضّل الإحساس بهذا الدّفء النّاعم الذي يضعه حضور النّساء حول حسّيتنا، بدلاً من إثارة حقيقية؛ ما كنت أُفضّله هو مُجرّد انجذاب مُدّعى، لا عاطفة فيه. هكذا كنت ذاك اليوم في هذا المكان الخاصّ بالتنزّه، مُستقبلاً نظرات ومُعيداً إياها على الفور، خفيفة مثل ريشات، مُستمتعاً دون امتلاك، وفاحصاً النساء دون رغبة، فقط مُدفأ قليلاً باللذّة الفاترة لهذه اللّعبة.

لكنّني سُرعان ما شعرت من ذلك أيضاً بالضّجر، لأنّ نفس الأشخاص ظلّوا يمرّون باستمرار أمامي، حتى حفظت عن ظهر قلب وجوههم وحركاتهم. كان بالقرب منّي مقعد فجلست فيه. اجتاحت مُختلفَ المجموعات حولي حركةٌ عاصفة فجعل المارّة يتدافعون ويتصادمون مُختلطين مصطخبين. كان واضحاً أنّ سباقاً جديداً سينطلق. لم أعر ذلك اهتماماً، وبقيت جالساً في مكاني باسترخاء وكأنّني غير موجود، تحت تاج دخان سيجارتي الصّاعد في دوائر بيضاء نحو السّماء حيث غدت أكثر امتقاعاً واختفت في الزّرقة الرّبيعية وكأنّها غيمة صغيرة. في هذه اللّحظة بالذّات انطلق ذلك الحدث الذي لا مثيل له، تلك التّجربة الفريدة التي لا تزال إلى اليوم تحكم حياتي. ويُمكنني أن أُحدِّد بدقّة زمن وقوعه لأنّني كنت قد أخرجت مُصادفة ساعتي فوجدت عقربيها مُتعانقين فرأيتهما بفضول وقح يقع أحدهما على الآخر لثانية. كانت السّاعةُ الثّالثةَ وستّ عشرة دقيقة من فترة ما بعد ظهر السّابع من يونيو ألف وتسعمئة وثلاثة عشر. كنت إذاً ثمّة، سيجارتي في يدي، تنظر عيناي إلى بياض مينا السّاعة، مُستغرقاً كلّية بهذا التأمُّل الرجولي والمثير للسّخرية في آن، عندما سمعت خلفي امرأة تُطلق ضحكة

حيوية، تلك الضّحكة الحادّة والمُثارة التي أحبّ سماعها لدى النّساء، الضّحكة التي تنبعث حامية من أعماق الحِسّية المضطرمة، كأنّها فزِعة. جعلني أمرٌ ما أن أُدير رأسي على الرّغم منّي، وكنت على وشك النّظر إلى هذه المرأة التي أتت حسّيتها الضّاجة لتطرقَ بهذا الشّكل غير المناسب باب أحلام يقظتي الهادئة وكأنّها شظية حجر أبيض تسقط في بركة ماء داكن وموحل، لكنّني تمالكت نفسي. أوقفتني فجأة رغبةٌ غريبة -من تلك التي كانت تحدوني باستمرار- في أن ألعب بذهني وأن أقوم باختبار سايكولوجي صغير مسالم. سلّاني في البداية أن أجعل خيالي يُحتلّ -في ضرب من الاستمتاع القبليّ- بهذه المرأة، وأن أُقدّمها لنفسي، واضعاً حول هذه الضّحكة محيّاً وفماً وحنجرة ورقبةً وصدراً؛ أن أضع حولها امرأة كاملة تضجّ بالحياة.

كان مُؤكّداً أنّها تقع مُباشرة خلفي. أخلى الضّحك من جديد مكانه للحديث. كنت أُنصت بانتباه. تحدّثَت بلكنة هنغارية خفيفة، بسرعة وطلاقة، مادّة الحروف اللّينة كما نفعل أثناء الغناء. راقني عندئذ أن أقدّم لنفسي شخصها انطلاقاً من هذه الكلمات وأن أهب أكبر قدر ممكن من الثّراء لهذا المحيّا المُتخيَّل. منحتها شعراً أسودَ

وعينين داكنتين وفماً واسعاً حِسّي الحاشيتين وأنفاً صغيراً ضيقاً، لكن بمنخرين مُمتدّين مرتجفين. وضعتُ على خدّها الأيسر نمشاً وفي يدها سوطاً تضرب به فخذيها برفق، ضاحكة. لم تتوقّف عن الكلام، فكانت كلّ كلمة تُضيف على الفور تفصيلاً للمحيّا الذي كنت أتخيله. صدرٌ غير واسع لفتاة شابّة، وفستان أخضر غامق مع مِشبَك من ألماس موضوع مُنحرفاً وقبّعة بعرف أبيض. كانت الصّورة تُصبح أكثر وضوحاً، فكانت هذه المرأة المجهولة، الماثلة غير مرئية خلف ظهري، قد انطبعت سلفاً في بُؤبؤي كما لو على صفيحة فوتوغرافية. لكنّني أحجمت عن الالتفات لأنّني كنت أُريد أن أُكثّف أكثر لعبة خيالي هذه، فاختلط ارتعاشُ لذّة خفيفة بتفكيري الحالم الجريء. أغمضت عينَي مُتأكّداً من أنّني عندما سأفتح جفنَي وألتفت نحوها، ستتطابق كلّياً الصّورةُ التي كوّنتها لنفسي مع الحقيقة الخارجية.

في هذه اللّحظة تقدّمَت. فتحتُ عينَي على الرغم منّي فخاب تخميني. كنت قد أخطأت بالكلّية، لأنّ كلّ ما فيها مُخالفٌ تماماً لتمثّلي الذي رسمته لها، بل كان كلّ شيء فيها مُعاكساً تماماً، كما لو بفعل حيلة ماكرة. كانت ترتدي فستاناً أبيض وليس أخضر، ولم تكن رشيقة

وإنّما ممتلئة لها وركان واسعان، ولم يكن في أيّ جزء من خدّها نمش ممّا تخيلتُ، ولم يكن شعرها أسود داكناً وإنّما أشقر أصهب يلمع تحت قبّعتها الشّبيهة بخوذة. لم تكن أيٌّ من المميزات التي خلعتها عليها في خيالي مُطابقة لهيئتها الحقيقية، لكن هذه المرأة كانت جميلة، ذات حسن مُثير، على الرّغم من أنّني رفضت الاعتراف بذلك، مجروحاً في لبّ كبرياء تمثّلاتي السايكولوجية. نظرت إليها بطريقة شبه عدوانية، لكن حتى مُقاومتي أحسَّت بقوة الجمال الجسديّ الذي كان ينضح من هذه المرأة وبما كان من حسية حيوانية في الأشكال التي يعرضها جسدها، رخوةً وصلبة في آن. عادت للضّحك من جديد، كاشفة عن أسنانها البيضاء المتراصّة، فوجدت نفسي مضطرّاً أن أقول لنفسي إنّ هذه الضّحكة الدّافئة والحسّية تتناغم جدّاً مع شخصيتها الثّرية. كلّ ما فيها بارز ومُثير: صدرها النّافر والذّقن الذي يُوسّعه الضّحك أكثر ونظرتها الثّاقبة وأنفها المعقوف والكف الضّاغطةُ مظلّتَها على الأرض. كان العنصر الأنثويّ يتفتّح أمامي في شكل قوة بدائية وغواية واعية فارضة نفسها وإثارةٍ زاخرة من لحم ودم. كان بجوارها ضابط أنيق، مُمتقع قليلاً، يُحدّثها بحماس. كانت تُنصت وتتبسّم وتضحك وتُجيب،

لكنّها كانت تقوم بذلك كلّه بطريقة عرَضِيَة، لأنّ نظرها خلال ذلك كان ينطلق في كلّ الاتّجاهات، شاملاً الجميع، بينما كان منخراها يرتجفان. كانت تجلب إليها اهتمام من يمرّون وابتساماتِهم، وأنظارَ كلّ النوع الذكوري -إن صحّ التعبير بهذه الطريقة- الذي يُحيط بها. كانت عيناها في حركة دائبة، باحثة أحياناً في المدرّجات كي تُحَيي فجأة شخصاً، فرِحة أنّها تعرّفَت إلى أحد، وكانتا تتيهان أحياناً يميناً أو يساراً، بينما هي مستمرّة دائماً في الإنصات للضّابط باسمة بدلال. أنا وحدي لم أكن في مدى نظرها لأنّ رفيقها كان يحجبني عنها، فلم تُلامسني بعد بنظرها. أغاظني ذلك فنهضتُ، ولم ترني، فاقتربتُ، وجعلَت هي تنظر جهة المدرّجات. لحظتئذ تقدّمتُ نحوها بتصميم وحييت مُرافقها برفعي قبّعتي وقدّمت للسّيدة مقعدي. نظرت إليّ مندهشة وعبَر بصرَها شُعاعُ ارتياح وامتدّت شفتاها ببسمة ودود ثمّ شكرتني باقتضاب شديد وأمسكت بالمقعد دون أن تجلس فيه. اكتفت بأن أسندت إليه برخاوة ذراعها السّمينة العارية حتى المرفق واستثمرَت الوضع المائل لجسدها كي تُبرز أحسن أنحاء جسدها.

كنت قد نسيت تماماً الغيظ الذي سبّب لي فيه خطئي

السايكولوجي، وما عُدت أُفكّر سوى في اللّعب مع هذه المرأة. كنت أنظر بحرّية، لكن دون أن أُثير الانتباه، وأستند إلى عصاي باحثاً بعينَي عن عصيهم. انتبَهَت لذلك فحانت منها التفاتة خفيفة نحو مكان مُراقبتي، لكن بطريقة بدت معها حركَتُها وكأنّها اعتباطية. لم تكن تتخفّى عن نظراتي، وكانت تُجيب عنها في بعض الأحيان، لكن دون أن تُبديَ التزاماً، مع ذلك. كانت عيناها تجولان حولها دون انقطاع، وتُلامسان كلّ شيء دون أن تحتفظا بشيء: أكنت أنا من تجعل هذه المرأةُ بسمةً سوداءَ تشعُّ عليه أم أنّها تخصّ بها شخصاً آخر؟ لم يكن بإمكاني أن أعرف، وكان هذا اللّايقين هو تحديداً ما يغيظني. خلال اللّحظات التي كانت تُوجّه نحوي أشعّتها الشّبيهة بنار تحت الرّماد، كانت تبدو نظرتها مترعة وعوداً، إلّا أنّ هذا البؤبؤ الفولاذيّ البرّاق كان يُجيب أيضاً، دون أدنى تمييز، عن كلّ النّظرات الأخرى التي تلتفت نحوها، تسليةً، بسبب متعة الدّلال التي تنفحها إياها هذه اللّعبة، لكن بالخصوص دون أن تُهمل ولو لحظة واحدة مُحادثةَ مرافقها، مُعطية الانطباع أنّها تخصّها بالاهتمام. إنّ هذا النّوع من الاستعراضات المشغوفة ليتّسم بانعدامٍ للحياء مُدهشٍ وبدلال بارع أو بفورةٍ للشّهوة. تقدّمتُ خطوة، لا

إرادياً، لأنّ وقاحتها الباردة كانت قد نفَذَتني. لم أعد أرقب عينيها، وإنّما رُحت أُفصّل جسدها من أعلاه إلى أسفله، مثل خبير. جرّدها نظري من ملابسها حقّاً حتى صرت أراها قدّامي عارية. تابعَت نظرتي دون أن تتضايق منها البتّة، باسمة بحافة فمها في اتّجاه الضّابط الذي كان مُستمرّاً في حديثه، لكنّني لاحظت أنّ هذه البسمة العالِمَة كانت إجابةً عن نيتي. وبما أنّ عينَي توقّفتا عند قدميها الصّغيرتين والرّقيقتين وقد برزتا من تحت فستانها الأبيض، فقد تركت بصرها ينزلق بلا مُبالاة حتى أسفل فستانها، كما لو كانت تفحصه. مباشرة بعد ذلك، وكأنّ الأمر مجرّد مُصادفة، رفعت قدمها ووضعتها على أوّل عارضة من المقعد الذي كنت قدّمته لها، بحيث جعلتُ أرى، عبر فستانها، جوربها إلى حدود ثنية ركبتها. لكن، في الأوان نفسه، بدا وكأنّ البسمة التي تخصّ بها مُرافقها أضحت ساخرة قليلاً أو ماكرة. كانت تلعب معي بنفس البرود الذي ألعب به معها، فوجدتُني مُضطرّاً أن أخصَّ بالتّقدير -مع كرهي لها- التّقنيةَ الحاذقة لجرأتها، لأنّها بينما كانت تنفحني -بتستّر مفضوح- جمال جسدها، كانت تستسلم، في نفس الآن، لمداعباتِ وشوشاتِ مُرافقها، مُسلّمة نفسها ونازعة إياها في آن، ليس إلّا لعباً

في الحالتين معاً. والحقّ أنّني كنت ساخطاً لأنّني أكره لدى باقي النّساء هذه الشّهوة الباردة والشّريرة والتي تضع حسابها لكلّ شيء، وهو ما كنت أشعر أنّه مُشابه لانعدام حساسيتي الخاصّة بي، وكأنّ الأمر أمرُ زنا المحارم. إلّا أنّني كنت مُثاراً، ربّما كراهية أكثر ممّا رغبة. تقدّمتُ بنفاد صبر فاجتاحها نظري بقسوة: «أريدك أيّها الحيوان الجميل»، قال لسان حالي المكشوف، وقد تحرّكت شفتاي دون شكّ، لأنّها ابتسمت ببعض الاحتقار وهي تُشيح برأسها تاركة فستانها يسقط على ساقها السّافرة. لكن بعد لحظة راح بُؤبُؤها الأسود ينظر من جديد في جهتي، برّاقاً، ثمّ تحاشاني. كان واضحاً أنّ برودها يُعادل برودي وأنّها قادرة على الوقوف في وجهي، وأنّنا معاً نتمتّع بدم بارد، مع هذا التطلُّع المحتدم للآخر، والذي ليس سوى نارٍ مُتخيلة. لكنّ هذه فرجةٌ جيدة ولعبة مُسلّية نلعبها في يوم لا اهتمامات خاصّة لنا فيه. وفجأة قطّب وجهها وانطفأ البريق الطّافح لعينيها وانحفرت ثنيةُ عدمِ الرّضا حول فمها الذي كان لا يزال يتبسّم. تابعتُ اتّجاه نظرها فرأيت رجلاً قصيراً وسميناً، تضيق به ملابسُه، مُقبلاً نحوها. كان وجهه وجبهته مُتعرّقين من شدّة إثارته، وهو يمسحهما بمنديله بعصبية. كانت قبّعته

التي وضعها بسرعة على رأسه مائلة إلى الخلف تُظهر صلعة متقدّمة جدّاً (على الرّغم منّي فكّرت أنّ صلعته إن انكشفت ستبدو عليها قطرات عرق ضخمة فتقزّزت من هذا الرّجل). كان يُمسك بحزمة بطاقات في يده المرصّعةِ أصابعُها بالخواتم. جعلَته إثارتُه ينفجر توّاً فجعل -على الفور ودون أن يُعير اهتماماً لزوجته- يُحدّث الضّابط باللّغة الهنغارية بصوت ضاجّ. تبيّنتُ بسرعة أنّه أحدُ متعصّبي حلبات سباق الخيل وأنّه تاجر أحصنة من طبقة عليا، الرّهان هو مُتعته الكبرى وبديله السّامي. من المفروض أن تكون زوجته قد وجّهت له مُلاحظات (كانت تبدو مُنزعجة من حضوره وقد تبلبلت ثقتها التي كانت تُبديها من قبل)، لأنّه عمَد للاستجابة إلى أمر أصدَرَته فعدّل من وضع قبّعته وراح يضحك بطريقة طفولية وهو ينظر إليها ويُربّت على كتفها بلطف ظاهر. عقدت حاجبيها غاضبة ومُنزعجة من هذه الألفة الزّوجية التي آلمتها بسبب وجود الضّابط وربّما بسبب وجودي أنا أيضاً. بدا الزّوج وكأنّه يعتذر فقال من جديد بضع كلمات باللّغة الهنغارية للضّابط الذي أجابه ببسمة مُجاملة، لكنّه أمسك بعد ذلك، بطريقة حانية ومتزلّفة قليلاً، بذراع زوجته. شعرتُ بها خجلة أمامنا من هذه الألفة التي

يعاملها بها زوجها، فكان قَرَفُها متعة لديّ أنا، اختلطت فيها السّخرية بالرّغبة. لكنّها سُرعان ما تمالكت نفسها، وبينما كانت تتعلّق بذراع زوجها ألقت نحوي بنظرة هازئة معناها: «أترى، هو الذي يملكني وليس أنت». كنت غاضباً ومُقرَفاً في آن. حدتني حقّاً رغبةٌ في أن أُدير لها ظهري وأن أذهب بعيداً كي أُظهر لها أنّ زوجة شخص سمين ومبتذل مثل زوجها ما عادت تُهمّني. لكن، ورغم كلّ شيء، كانت الغواية أقوى فبقيتُ.

في هذه اللّحظة دوت الإشارة الحادّة إعلاناً عن الانطلاقة. كل هؤلاء النّاس الذين كانوا بالقرب منّا يتحدّثون أو جامدين ساكنين، تغيّرت حالهم فجأة وجعلوا يعدون نحو الحاجز من كلّ الجهات في هرج ومرج مُفاجئ. وجدتُني مُضطراً بشكل من الأشكال إلى استعمال قوّتي حتى لا أنساق معهم أنا أيضاً، لأنّ رغبتي تحديداً كانت أن أبقى وسط هذه القلقلة بالقرب من المرأة؛ فلربّما تُتاح عندئذ نظرة حاسمة أو مُلامسة أو أيّة وقاحة أخرى. وهكذا استنفرت وسط هؤلاء النّاس الذين يعدون، كلّ قواي كي أقترب منها. كان زوجها البدين، في هذه اللّحظة يخفّ جهتي، دون شكّ كي يعثر على مكان جيّد في المنصّة. قذَفَت بهما دفعةٌ من الاتجاه المعاكس

فاصطدمنا بقوة شديدة حتى أنّ قبّعته غير المُثبّتة على رأسه وقعت أرضاً فانتثرت حولنا البطاقات التي كانت مدسوسة تحتها وبدت كأنّها فراشات حمراء وزرقاء وصفراء وبيضاء. تفرّسني لحظة، وكنت على وشك الاعتذار له بآلية، لكنّني، على العكس من ذلك، لم أدرِ أيّ شرّ أطبق شفتَي. جعلت أنظر إليه ببرود بهيئة مُترعة استفزازاً وقِحاً ومُحَقّراً. تأجّجت عيناه لحظة، غير واثق من نفسه، لكنّ الخوف سرعان ما أطفأ فيهما شرارة الغضب، فنُكّستا أمام عينَي. نظر لحظة في وجهي، بقلق ما زلت أذكره وبشبه تأثّر، ثمّ انثنى، إذْ بدا أنّه تذكّر بطاقاته فانحنى يجمعها ومعها قبّعته. ألقت علي زوجته -بوجهها الأحمر غيظاً، وقد تخلّت عن ذراع زوجها- بُرُوقَ غضبٍ لا تحفّظ فيه. شعرت، بضرب من اللّذة، أنّها تودّ لو تضربني. لكنّني ظللت بارداً تماماً، أنظر بلا مُبالاة، بَاسِمَ الشّفتين إلى زوجها السّمين تتسارع أنفاسه وهو يزحف بالقرب من قدميّ، دون أن يحظى منّي بأدنى مساعدة. انتصبت ياقة قميصه وهو في تلك الوضعية فبرزت كتلة دهنية على قفاه الأحمر، لاهثاً مع كلّ حركة وكأنّه مُصاب بالرّبو. عندما رأيته على تلك الحال من انقطاع النّفس راودتني فكرة بذيئة ومنفّرة، إذْ تخيلته في حميميته الزّوجية مع امرأته.

تملّكتني الوقاحة بفعل هذه الفكرة فجعلت أراقب، مع بسمة فصيحة، الغضب الذي كانت زوجته تجد صعوبة في إخفائه. كانت تقف أمامي في تلك اللّحظة مُمتقعة ومُتجاوَزَة، وقد أخذ تمالكُها لنفسها يقلّ شيئاً فشيئاً. أخيراً انتزعتُ منها إحساساً حقيقياً؛ غضباً شديداً وكراهية! وددت لو امتدّ هذا المشهد الشرّير إلى ما لا نهاية. كنت أنظر باستمتاع بارد إلى الرّجل وهو يتعب قصد العثور على بطاقاته الواحدة تلو الأخرى. كان يسكن حنجرتي ذئب مُهرّج لا يكفّ عن رفع صوته بالضّحك مُتحرّقاً شوقاً للقهقهة، فوددت لو انفجرت ضحكاً أو لو دغدغت قليلاً بطرف عصاي هذه الكتلة اللّحمية الرّخوة والمتحرّكة. أعترف أنّني لا أتذكّر أنّه قد سبق لي قط أن كنت مسكوناً بهذا القدر من الشّر، كما كنت في هذه اللّحظة وأنا أُحرز نصراً بيّناً بإذلال هذه المرأة الشّديدة الوقاحة. بدا أنّ الشّقي قد عثر أخيراً على بطاقاته باستثناء واحدة، مع ذلك، زرقاء اللّون، كانت قد حلّقت بعيداً ووقعت بالقرب منّي على الأرض، فجعل يبحث عنها سدى بعينيه حَسِيرَتَي البصر (كانت نظّارته التي بلا مَاسِكَين موضوعة على طرف أنفه البرّاق عرقاً) وهو يدور حول نفسه. رغبت -مدفوعاً بفكرة خبيثة حقيقية- أن أُطيل

جهوده المُضحكة. قدّمت رجلي بحيوية -مُنساقاً دون مُقاومة مع وقاحةٍ تُعادلُ وقاحة تلميذ إعدادي- ووضعتها على البطاقة بطريقة يستحيل عليه العثور عليها مهما بذل من جهد، تاركاً إياه هكذا يبحث عنها ما شئت من الوقت. واصل الرّجل النّظر إلى الأرض حوله ثمّ عدَّ قِطَعَه الورقية وأعاد عدّها، لاهثاً. من الواضح أنّ بطاقة تنقص مجموعته (بطاقتي!)، وإذْ همَّ من جديد بالانخراط في البحث وسط الهرج والمرج المحتدم، نفدَ صبرُ زوجته فما عادت قادرة على التّحكّم في غضبها المضطرم، فتفادت، بهيئةٍ مُتشنّجة، وبعصبية، نظرتي السّاخرة وصاحت بنبر مُتعال: «لاجوس!» فارتعد مثل فرس سمع النّفير، ونظر مرّة أُخرى إلى الأرض بهيئة مُتسائلة (بدا لي وكأنّ البطاقة تحت حذائي تُدغدغني فوجدت صعوبة في التّحكّم في هستيريا ضحك ساورتني)، ثم التفت مُنقاداً لزوجته التي ساقته، ببعض التّعجّل غير الخالي من المباهاة، بعيداً عنّي، وسط الجمهرة التي لم تزدد إلّا اصطخاباً.

بقيت ثمّة لا رغبة لي البتّة في السّير في أثر أيّ منهما. كانت الحلقة بالنّسبة إلي قد انفضّت، فانقشع بطريقة رائعة هذا الإحساسُ بالتوتّر الإيروتيكي مُخلياً مكانه

للسّكينة. تخلّصت من كلّ إثارة، ولم يفضُل لديّ سوى الرّضا الشّاملِ من أنّني قد فرّغت فجأة شرّي، وضربٍ من الارتياح الوقح، الشّبيه بالاعتزاز بالنّفس، من أنّني قد نجحت في مسعاي الماكر. كان النّاس أمامي يتعجّلون فبدأ الاصطخاب يتموّج وأخذت موجة واحدة موحّدة سوداء تقترب من الحاجز، لكنّني كففت عن مُتابعتها ببصري. جعل الضّجرُ يُعاودني. فكّرت في التّوجّه إلى «كريو» أو العودة إلى البيت. لكنّني ما أن قدّمت ساقي أمامي، دون أن أُفكّر في ذلك، حتى لاحظت وجود البطاقة الزّرقاء، منسية على الأرض. التقطتها وطفقت ألعب بها بين أصابعي لا أدري ما أصنعُ بها. ساورتني الفكرة العائمة بأن أُعيدها للاجوس، وهو ما سيكون مُبرّراً ممتازاً للتعرُّف إلى زوجته، لكنّني لاحظت أنّها ما عادت تُهمّني في شيء، وأنّ الاحتدام العابر الذي أوقدته فيّ هذه المغامرة كان قد برد تاركاً مكانه للا مبالاتي القديمة. ما كنت عدتُ أبتغي من زوجة لاجوس شيئاً أكثر من تبادل النّظرات ذاك الذي كان قد عكس، في آنٍ، صراعاً ورغبة. وكان هذا القصير البدين أقلّ ترغيباً لي في أن أتقاسم معه أيّ شيء. كانت لحظة الارتجاف قد عبرت فما عاد يحدوني الآن سوى فضول كسلان واسترخاء هادئ.

كان ثمّة مقعد مُهمل ومنعزل فجلست فيه على راحتي وأشعلت سيجارة. راح الشّغف أمامي يحتدم من جديد، لكنني لم أكن أُنصت إليه حتّى، لأنّ الأمور المكرورة لا تحظى عندي باهتمام. طفقت أنظر إلى دخان السّيجارة الباهت مُفكّراً في «ميران» بمُنتزه الغولف، حيث كنت جلست منذ شهرين مُتأمّلاً انبثاق الشّلال. الأمر نفسه يحدث ها هنا. هنا ضجيج صاخب لا يهب الدّفء ولا البرود، وتسري هناك أيضاً وشوشة بلا معنى يعكسها المنظر الطبيعي الأزرق الصّامت. كان شغف المراهنين قد أدرك أوجه، ومن جديد جعل يخفق فوق هذا التدفّق البشري خليطُ المظلّات والقبّعات والصّرخات والمناديل، ومن جديد امتزجت الأصوات في نبرة حادّة واحدة، في صوت مهتزّ (لكن بنبر مختلف هذه المرّة) خرج من الفم الموحّد الضّخم للجماهير. كنت أُنصت لألف صوت، لعشرة آلاف من الأصوات تُطلِق بحبور أو بحسرة، بنبر حادّ أو مفتتن، اسماً، اسماً بعينه: «كريسي! كريسي! كريسي!» ثمّ انكسر هذا الصّوت فجأة، وكأنّه حبل شُدّ بإفراط (لكن، كم يُحيل التّكرارُ حتى الشّغفَ رتيباً!). بدأ عزف الموسيقي وتشتّت الجمع. رُفعت يافطات في الهواء عليها اسم الفائزين. ودون أن تكون لي رغبة في ذلك

نظرت في اتّجاهها فرأيت في البداية رقم سبعة يلمع. ألقيت نظرة آلية على البطاقة الزّرقاء التي نسيتها بين أصابعي، فوجدت عليها أيضاً رقم سبعة. ضحكت على الرغم منّي لأنّ البطاقة كانت رابحة. كان لاجوس الطّيب هذا قد أجاد اختيار فرس الرّهان، وهكذا أكون، بمكري، قد فوتُّ مالاً على هذا الزّوج البدين. عاودني فوراً مزاجي الوقح، فصرتُ مهتمّاً بمعرفة المبلغ الذي جرّده منه تدخّلي الغيور. فحصت بانتباه، لأوّل مرّة، القطعة الورقية الزّرقاء. إنّها بطاقة عشرين كورونا وقد راهن لاجوس بـ«رابح»، وبذلك قد يكون العائدُ هامّاً من غير شكّ. دون مزيد من التفكير، مستجيباً فقط لدغدغة الفضول، تركت نفسي للجموع المتعجّلة تدفعني في اتّجاه الشبّاك. وجدتُني محشوراً في صفّ. قدّمت التّذكرة، وعلى الفور وضعَت لي يدان بارزتا العظام وسريعتان (لم أكن أرى خلف الشبّاك وجهاً) على الرّخام تسع ورقات من فئة عشرين كورونا.

وفي اللّحظة التي قُدِّم لي فيها المال، ورقاتٍ زرقاءَ، مالاً حقيقيّاً، انحسر الضّحك في حنجرتي. تولّاني على الفور شعور بغيض. سحبت يدي كي لا ألمس هذا المال الغريب. كان بودّي أن أترك هذه الورقات المالية حيث

وُضعت، لكنّ النّاس خلفي يتزاحمون مُتعجّلين قبض ربحهم، فلم يعد أمامي سوى أخذها، وهو ما قمت به بأطراف أصابعي، مشمئزّاً، لأنّ هذه الورقات المالية جعلتني أُفكّر في ألسنة لهب زرقاء تُحرق كفّي، ما كان يجعلني أُبعدها عنّي بطريقة لا واعية، كما لو كانت هذه الكفّ التي تُمسك بها ليست جزءاً مني. انتبهت على الفور إلى الطّابع القدَريّ لهذه الوضعية. لقد أفضت مزحةٌ بسيطة، دون قصد، إلى أمر لم يكن ليسمح به لنفسه رجلٌ شريف، نبيل، فتردّدت في أن أتلفّظ في داخلي بالاسم الحقيقي الذي كان هذا يستحقّه، لأنّ الأمر لم يكن مرتبطاً بمال غير مُناسب، وإنّما بمال حُصّل بالتّحايل، فإذاً هو مسروق.

كانت الأصوات توشوش حولي وتطنّ، والنّاس يتصادمون ويتزاحمون، قادمين من الشّبابيك أو ذاهبين إليها. ظللت ثابتاً في مكاني، يدي مُبعدة عن جسدي. ما العمل؟ فكّرت بدءاً في الحلّ الطبيعي: الشّروع في البحث عن الفائز الحقيقي والاعتذارُ له وتسليمه مالَه، لكنّ ذلك كان مُستحيلاً، خصوصاً بحضور الضّابط. فأنا مُلازم احتياطي، وإذاً فإنّ اعترافاً مثل هذا قد يؤدّي بي إلى فقد رتبتي. وحتى لو كنت قد عثرت على البطاقة،

فإنّ تحصيل المال يُعدّ سلفاً سلوكاً غير مقبول. فكّرت أيضاً في الاستسلام لغريزة أصابعي، فأُلقي بالأوراق المالية أو أُتلفها، لكن فعل ذلك وسط هذه الجموع قد يُلاحَظ بسهولة فيُعتبر شبهة في ذاته. بيد أنّني لم أكن أريد، بأي حال، الاحتفاظ معي بهذا المال، ولا حتى أن أضعه مؤقّتاً في حافظة نقودي كي أُسلّمه بعد ذلك لشخص ما. لقد كان معنى الطّهارة الأخلاقية عندي، منذ حداثة سنّي، والذي كان مُعادلاً طبيعياً لعادة ارتداء لباس نظيف، يتقزّز من أيّ اتّصال، مهما يكن طفيفاً، مع هذه الأوراق المالية. «ليُبعَد عنّي هذا المال، ليُبعد عنّي»، كنت أُردّد في داخلي، فريسةً لضرب من الحمّى. «أجل، ليُبعد عنّي، وليوضع في أيّ مكان!». نظرت حولي بآلية بهيئة قلقة بحثاً عن مكان أُخفيه فيه دون أن يراني أحد. لاحظت أنّ النّاس كانوا جعلوا يُهرولون من جديد نحو الشّبابيك، لكن حاملين هذه المرّة أوراقاً مالية في أكفّهم، فشكّلت هذه الفكرةُ لي خلاصاً: أن أُعيد هذا المال إلى المصادفة الماكرة التي مكّنتني منه، وأن أُلقي به في الهوّة النّهمة التي تلتهم الآن بحماس مجنون الرّهانات الجديدة، في شكل قطع نقدية وأوراق مالية. أجل، في هذا يثوي الحلّ وهو الوسيلة الحقيقية لخلاصي.

اجترحت لي ممرّاً بأكبر قدر من السّرعة وسط المجرى البشري، فما عاد أمامي سوى رجلين كان أوّلهما قد أدرك سلفاً العدّاد فانتبهت إلى أنّني لم أكن أعرف أيّاً من أسماء الجياد لأُراهن عليه. أرهفت سمعي إلى ما كان يُقال حولي. «هل ستُراهن على رفاشول؟» سأل أحدهم. «ألا ترى أنّ تيدي يملك أيضاً حظوظاً؟»، «تيدي؟ لا حظّ له البتّة. لم يُحقّق شيئاً في السّباق الأوّل. إنّه لا يوحي إلّا بالوهم». كنت أكرع هذه الكلمات مثل شخص يموت عطشاً. تيدي إذاً رديء، ونتيجة لذلك فإنّه لن يفوز، فقرّرت على الفور المراهنة عليه. قدّمت المال وراهنت على فوز تيدي، الذي سمعت لتوي اسمه لأول مرّة. مدّت لي كفّ البطاقات فصار فجأة بين أصابعي تسع قطع ورقية بيضاء وحمراء، بدلاً من قطعة واحدة. كان ذلك مُرعباً لي دائماً، لكن البطاقات، مع ذلك، كانت تُحرق أصابعي بطريقة أقلّ إغاظة وإذلالاً من الأوراق المالية الصّارّة.

شعرت بنفسي مُتخفّفاً، أكاد أكون خاليَ البال. لقد تخلّصت الآن من هذا المال، فما عاد من وجود للجانب البغيض من هذه المغامرة، وعادت القضية من جديد مجرّد مزحة كما كانت أوّل الأمر. ذهبت وجلست على

مهلي وأشعلت سيجارة ورحت أنفخ بكسل دخانها أمامي. لكن ذلك لم يدم طويلاً. نهضت وجعلت أمشي وأجلس. لكن، يا له من أمر بلا مثيل؛ لقد انتهى حلم يقظتي السّعيد. لا أدري أيّ عصبية فوّارة كانت قد تسرّبت إلى أطرافي. فكّرت في البداية أنّه ضيق اعتورني بسبب فكرة أنّني قد ألتقي بلاجوس وزوجته بين حشود النّاس المارّين، لكن هل كان بإمكانهما أن يُخمّنا أنّ هذه البطاقات الجديدة هي ملك لهما؟ كما أنّ اصطخاب النّاس لم يكن يُبلبلني، لا، بل بالعكس، كنت أُراقبهم باهتمام لأرى ما إن كانوا سيُسارعون من جديد نحو الحواجز. وقد تفاجأت حتى من نهوضي باستمرار كي أرى العَلَم الذي يُعطي إشارة الانطلاق. ما كنت أُعاني منه إذاً هو التعجُّل، وحمّى داخلية مصطخبة، سببها الانتظار، أملاً في أن ينطلق السّباق في أقرب وقت كي يُوضعَ حدٌّ لهذه القضية المنحوسة بصفة نهائية.

مرّ فتى أمامي يعدو، عارضاً صحيفة السّباقات، فأوقفته واشتريت البرنامج ورحت أبحث من بين حشد من العبارات و«المعلومات» المكتوبة بلغة عامّية غريبة، إلى أن اكتشفت في الأخير تيدي واسم فارسه ومالكه ولونَيه: الأبيض والأحمر. لكن لماذا يحظى هذا كلّه باهتمامي

إلى هذه الدّرجة؟ دعكت بحركة عدم الرّضا الصّحيفة وألقيت بها ثم نهضت كي أجلس من جديد. اجتاحتني فجأة هبّة حرارة، فاضطررت إلى تجفيف جبهتي وجعلت ياقتي تخنقني، ولم يكن السّباق قد انطلق بعد.

رنّ النّاقوس أخيراً فهرول النّاس. شعرت في هذه اللّحظة، مُرتعباً، كأنّ هذا الرّنين قد انتشلني غصباً من نومٍ ما مثل رنين منبّه صباحيّ. نهضت فجأة حتى أنّ مقعدي انقلب، وانطلقتُ. أجل كنت أعدو مثل أحمق نحو الحواجز وسط الحشد مُمسكاً بقوة بين أصابعي بالبطاقات، وكأنّني مأخوذ بخوف مرعب من أن أصل متأخّراً جدّاً وأن أُفوّت على نفسي أمراً ذا أهمية مركزية. أدركت بسرعة الحاجز الأوّل، مُزيحاً النّاس من طريقي بفظاظة، وسحبت نحوي دون تردّد مقعداً كانت سيدة تهمّ بالجلوس فيه. انتبهت على الفور إلى افتقاري للّياقة وإلى نوع التعجُّل الذي أبديته أمام هذه المرأة المندهشة. إنّها الكونتيسة «ر»... التي أعرفها خير المعرفة، فلاحظتُ انعقاد حاجبيها غضباً، لكنّني حوّلت نظري عنها ببرود، خَجَلاً وحِفظاً لماء الوجه، في آن، وقفزت على الكرسيّ كي أرى ساحة السّباق.

هناك، في البعيد على الخضرة، كانت توجد في

مكان انطلاق السّباق مجموعة صغيرة من الجياد المتعجّلة، يتحكّم فيها بصعوبة على خطّ الانطلاق فُرسانٌ دقيقو الأجساد فيبدون في شكل مهرّجين تنوّعت ألوان ملابسهم وتعدّدت. رحت أسعى بسرعة إلى معرفة فرسي، لكنّ عينيّ كانتا بلا خبرة، كما أنّ كلّ شيء كان يهتزّ أمام بصري بطريقة محمومة وغريبة حتى أنّني وجدتني غير قادر على التعرُّف إلى الخوذة البيضاء والحمراء بين كلّ هذه البقع الملونة. في هذه اللّحظة رنّ النّاقوس مرّة ثانية، ومثل سبعة سهام أطلقها قوس، عدت الجياد في الحلبة الخضراء. من المفروض أن تكون فرجةً رائعةً من وجهة نظرٍ جمالية أنْ نُتابع ببصرنا بدَمٍ باردٍ كيف كانت هذه الحيوانات الرّشيقة تعدو عدواً موقّعاً فتبدو قوائمها التي لا تكاد تلامس الأرض، كأنّها نوابض سُرعان ما تهتزّ على العشب، لكنّني لم أكن أُلاحظ شيئاً من هذا كلّه، مُجهداً نفسي بيأس في التعرُّف إلى فرسي وإلى فارسي ولمتُ نفسي إذ لم آتِ بمنظار مُقرّب. تقوّستُ ثمّ استقمت، لكنّني لم أكن أرى سوى أربع حشرات أو خمسٍ ملوّنة مُتداخلة في كوكبة مُسرعة جدّاً. بيد أنّني انتبهت مع ذلك، إلى أنّ شكل هذه الكوكبة كان يتغير شيئاً فشيئاً وأنّ هذه المجموعة الخفيفة كانت تتمدّد، عند

المنعطف الشّبيه بزاوية، بينما شرع يرتسم رأسٌ مُنفرد في المقدّمة، وأنّ جزءاً من هذا السِّرب، في المؤخّرة، جعل سلفاً ينفصل عن البقية. أضحى السّباق نابضاً. كانت ثلاثة أحصنة أو أربعة تلتصق بعضها ببعض وقد جعلها عدوُها السّريع تنفصل عن البقية، فبدت وكأنّها أشرطة ورقية ملونة، يأخذ المقدّمة تارة هذا وتارة ذاك، بسَبْقٍ طفيف جدّاً، فجعل جسدي على الرّغم منّي يتمدّد، كما لو كان بإمكان هذه الإيماءات التي أُصدرها وهذه الطريقة المتوتِّرة والمشغوفة في الاصطخاب قادرةً على زيادة سرعة الجياد ومُضاعفتها.

كانت الإثارة حولي تحتدم، وكان بضعة أشخاص أكثر خبرة منّي قد ميّزوا دون شكّ الألوان عند المنعطف، لأنّ أسماءً بدأت الآن تنطلق من هذا الخليط الملتبس وكأنّها صواريخ. شرع شخص بالقرب منّي، وهو يرى رأس فرس يتقدّم المجموعة، يُؤتي بيديه إشارات مجنونة وهو يصيح، مُتملماً نافد الصّبر، بصوت عالٍ شِرّيرٍ ومُنتصر: «رفاشول! رفاشول!»، فرأيت بالفعل اللّون الأزرق لراكب هذا الفرس يلمع فاستبدّ بي غضب شديد من تبيّني أنّ فرسي لم يكن هو الرّابح. لم أعد قادراً على تحمّل سماع «رفاشول! رفاشول!» من فم هذا الشّخص

المقزّز الواقف بالقرب منّي. أمسيت فريسة لغضب حقيقيّ ووددت لو أدخلت قبضة يدي في الثّقب الأسود المفتوح لفمه المواصلِ صُراخَه. جعلت أرتعش غيظاً، محموماً. وفي كلّ لحظة كنت أشعر أنّني قادر على اقتراف حماقة، لكن ها هو ذا فرس آخر يكاد يكون مُلتصقاً بالفرس الأوّل، فلربّما كان تيدي، من يدري؟ أجّج هذا الأملُ حماسي من جديد. وبالفعل، بدا لي أن الذّراع التي تنتصب الآن فوق السّرج وتضرب بالسّوط ردف الفرس كانت ترتدي اللّون الأحمر. من الممكن أن يكون هو، يجب أن يكون هو، أجل، يجب أن يكون الأمر كذلك. لكن لماذا لا يحملُه على التّقدّم أكثر، هذا النّذل؟ هيّا ضربة سوط جديدة، ضربة جديدة! هو الآن قريب جدّاً من الآخر، لا يكاد يفصل بينهما متر واحد. لماذا رفاشول، رفاشول؟ لا، ليس رفاشول! ليس رفاشول! وإنّما تيدي! تيدي! هيا يا تيدي، إلى الأمام! إلى الأمام!

وفجأة تقهقرتُ بعنف. ما الذي يحدث، ما الذي جرى؟ من الذي يصيح بهذه الشّاكلة؟ من يهتف بهذه الطّريقة: «تيدي، تيدي!». إنّه أنا نفسي من حمأة شغفي، فساورني خوفٌ منّي. أردت تمالك نفسي والعودة إلى رشدي. وفي أوجِ حُماي بلبلني الخجل، لكنّني لم أُفلح

في تحويل بصري، لأنّ الفرسَين، هناك، يكادان يكونان مُلتصقين ببعضهما، وليس من شكّ في أنّ تيدي هو المتشبّث برفاشول، رفاشول اللّعين الذي أكرهه بجنون. وبالفعل كان كلّ شيء حولي يُطلق صوتاً واحداً صارخاً بحدّة: «تيدي! تيدي!»، فأغطستني هذه الصّرخة من جديد في شغفي، أنا الذي كنت قد استطعت التخلُّص منه في لحظة وجيزة برُد فيها دمي. من المفروض أن يفوز! عليه أن يفوز! والحقيقة أنّ ها هو ذا الفرس الذي كان في المقدّمة وقد تجاوزه رأس فرس آخر، بشبر فقط ثمّ بشبرَين، وها نحن نرى الآن سلفاً عنقه في كليته. في هذه اللّحظة أصدَتِ الأصواتُ الحادّة للنّاقوس، فَعَلا صوتٌ واحد بفعل الغبطة والحسرة والغضب. ملأ الاسمُ المُشتهى، لحظةً، السّماءَ حتى أدرك القبّة الزّرقاء. ثمّ ساد الهدوء فسُمعت الموسيقى تُعزف في مكان ما.

* * *

نزلت من مقعدي، جلدي مُبلّل حارقٌ وقلبي خفّاق. اضطررت للجلوس لحظة لشدّة ما كانت حماستي قد زعزعتني. كنت فريسة تشنّج لم يسبق لي قطّ أن عرفته من قبل، بسبب فرح لا معنى له مبعثُه تَبيُّني أن المصادفة قد استجابت بهذه الطّوعية لرهاني. عبثاً حاولت ادّعاءَ أنّ

هذا الفرس فاز على الرّغم منّي، وأنّ رغبتي كانت أن لا أفوز. لكنّني لم أُصدّق نفسي، وكنت أشعر سلفاً بنبض قاسٍ يعبر أطرافي. كنت مجلوباً مغناطيسياً إلى مكان، وأنا أعرف ما هو هذا المكان. كنت أُريد أن أشاهد النّصرَ وأن أُمسك به وأن أجسّه؛ كنت أريد لمس المال، كثيراً من المال، وأن أُحسّ في أصابعي وحتى في أعصابي بصرير الأوراق الزّرقاء. استولت عليّ رغبة ماكرة غريبة فما عاد مجالٌ للخجل أن يمنعني من الاستسلام لها. ما كدت أقف حتى سارعتُ إلى الشّباك، بفظاظة، دافعاً بمرفقيّ، مُزاحماً بنفاد صبر النّاس المتجّمعين أمام الشّباك، ليس إلّا لأرى بعينيّ المال، هذا المال. «صعلوك!» وشوش خلفي أحدٌ ممّن أزحتهم بتلك الطّريقة. سمعته لكنّني لم أُفكّر في مطالبته بتبرير سبب نعته لي بهذه الصّفة، لأنّني كنت فريسة تعجّل مرَضيّ وغير مفهوم. حلّ دوري أخيراً فأمسَكت يداي بنهم مظروفاً أزرقَ من الأوراق المالية. عددتها مُرتعشاً حماسةً، ومتحرّقاً. كان فيه ستمئة وأربعون كورونا.

ضغطتها بين ذراعي بعصبية. كانت أوّل فكرة راودتني هي أن ألعب من جديد كي أربح أكثر، كي أربح أكثر بكثير. أين هي إذاً صحيفة السّباقات التي اشتريتها؟

آه، لقد رميتها لمّا كنت في قمّة اضطرابي. التفتّ حولي راغباً في شراء صحيفة أخرى، فلاحظت برعب شديد أنّ النّاسَ جميعاً جعلوا فجأة يتفرّقون من حولي وأنّهم يولّون شطر باب الخروج وأنّ الشّبابيك تُغلق وما عادت الرّاية خفّاقة. كانت جولات السّباق قد انتهت، وكانت آخرها هي التي جرت لتوها. ظللت ثمّة لحظة ثمّ استولى علي غضبٌ شديد كما لو كنت قد ظُلمتُ. لم أستطع قبول أن ينتهي كلّ شيء، الآن وقد انشدّت أعصابي وارتعشت وسال دمي في عروقي بدفء لم أعرفه منذ سنوات. لكنّ تغذية أمل كاذب بتمنّي أن يكون في الأمر خطأٌ ما، لم تكن تُفيد في شيء، لأنّ الموجة المتعدّدة الألوان للجموع كانت تسري بسرعة أكثر فأكثر، فشَرَعت خضرة العشب تلمع لأنّه لم يعد يعبرها سوى عدد طفيف من المتأخّرين في المغادرة. شيئاً فشيئاً شرعت أشعر بالطّابع المثير للسّخرية لرغبتي في البقاء ها هنا. أمسكت بقبّعتي (يبدو أنّني كنت قد تركت عصاي، لشدّة تأثّري، بالحاجز)، والتحقت بباب الخروج. تقدّم مُستخدم أنيق جدّاً للقائي وهو يرفع قبّعته، فقدّمت له رقم عربتي. نادى صانعاً من كفّيه مُكبّر صوت فأتي الفرَسان على الفور مُصدِيين بحوافرهما. طلبت من الحوذيّ أن ينزل الممرّ الكبير على

مهله، لأنّني الآن وقد بدأ اعتمالي يهدأ بطريقة رائعة، حدتني رغبة لذيذة في أن أعيش بذهني المشهد كلّه.

في هذه اللّحظة مرّت عربة بالقرب من عربتي فنظرت لا إرادياً في اتّجاهها، لكنّني سُرعان ما حوّلت بصري عنها. إنّها المرأة برفقة زوجها البدين. لم ينتبها إليّ، غير أنّ ضرباً من التشنُّج العصبي استولى علي على الفور كما لو كنت قد ضُبطت مُتلبّساً. وددت لو صرخت في الحوذيّ أن يهوي بسوطه على الفرسين كي أتخلّص في أقرب وقت من مجاورتهما.

انسابت العربة برخاوة على عجلاتها المطّاطية، وسط عدد غفيرٍ من العربات الأخرى التي بدت وكأنّها تُبحر مثل سفن مورَّدة، بحمولتها المزوّقة بالأناقة الأنثوية، على طول حاشيتَي الممرّ المحفوف بشجر الكستناء. كان الجوّ لطيفاً وهادئاً، وكانت تطفو أحياناً خلال الغبار هبّةٌ باردةٌ خفيفة مُعلنة عن تباشير رطوبة المساء. لكنّ حلم اليقظة السّابق الرّائع ولّى ولم يعد. لقد بلبلتني رؤية الشّخص الذي كنت قد احتلت عليه واختَرَقَت فجأة تأجّجَ شغفي تماماً كما يعبر تيار هوائيّ بارد ممرّاً. استعدت، مُنكّس الرّأس، المشهد كلّه فما تعرّفت إلى نفسي. أنا، النبيل، أحد أعضاء المجتمع الرّاقي والضّابط الاحتياطي الذي

يحظى بالتّقدير الوفير، استوليتُ دون أن تكون بي حاجةٌ إلى ذلك على مال رجل آخر، فوضعته حتى في حافظة نقودي بفرح جشِعٍ وبابتهاج غدا معه كلُّ اعتذار مُستحيلاً. أنا الذي كنت قبل ساعة من الآن لا أزال رجلاً نزيهاً مُنزّهاً عن أيّ لطخة، سَرَقتُ. لقد صرت سارقاً. وكما لو لأُرعب نفسي تلفّظت بتهمتي بصوت شبه مسموع، بينما كانت العربة تمشي بهدوء وقد انسجَمتُ لا إرادياً مع إيقاع حوافر الفرسين: «سارق! سارق! سارق!».

* * *

كيف يُمكنني أن أصف ما حصل بعد ذلك؟ كان الأمر -وهو ما يُعدّ غريباً في ذاته- غير قابل للتّفسير، متفرّداً، بيد أنّني على بيِّنة من أنّني في نهاية المطاف لا أتوهّم شيئاً. إنّني أتذكّر كلّ لحظة عشتها بأحاسيسي، وكلَّ تأرجح اعتور فكري في هذه اللّحظات، بوضوح يكاد يكون كاملاً، وهو ما لم يسبق له أن حصل في أي تجربة من تجاربي التي عشتها خلال السّت والثّلاثين سنة من حياتي. غير أنّني لا أكاد أجرؤ على التّعبير عن هذا التتابع العبثي وهذا التغيُّرِ المدهش الذي كان يحصل فيّ (أنا لا أدري ما إن كان هناك كاتب أو عالم نفس يقدر على تقديم وصف منطقي لذلك)، وليس بمستطاعي إلّا

أن أُدوّنه وأن أعيد بإخلاص تصوير انبعاث الأمور غير المتوقّعة. كنت إذاً أردّد لنفسي: «سارق! سارق! سارق!» ثمّ حلّت لحظة شديدة التّفرّد، لحظةٌ بدا لي فيها أنّه لم يكن ثمّة إلّا الفراغ، لحظة لم يحدث فيها شيء، واكتفيت فيها (آه! كم هو صعب أن أقول هذا) بالإنصات، بالإنصات لحياتي الدّاخلية. كنت قد نطقت باسمي أمام المحكمة، وكنت اتّهمت نفسي، وعلى المتّهم الآن أن يُجيب عن أسئلة القاضي. كنت أُنصت إذاً، ولم يقع شيء أبداً. ضَربةُ سوطٍ كلمةِ «سارق» التي كان من المفروض، بحسب ما توقّعت، أن تُرعبني ثم تُغطسني في عارٍ وفي ندم شديدَين، لم تُحرّك فيّ شيئاً. انتظرت نافد الصّبر دقائقَ ثمّ ملتُ، على نحو ما، على نفسي حتى صرت أقرب منها فأقرب (لأنّني كنت أشعر بقوّة أنّ تحت هذا الصّمت المتعجرف، ثمّة شيءٌ يتحرّك) فأنصتّ بتوتّر محموم لصدَى الغِيابِ مُنتظراً صرخة القرف والغضب واليأس التي كان من المفروض أن تتلو هذا الاتّهام الذّاتي. ومن جديد لم يحدث شيء. لا شيء أجاب، فناديتُني من جديد: «سارق! سارق!» بصوت شبه مرتفع هذه المرّة، كي أوقظ في الأخير ضميري الأصمّ المشلول. لا جواب. وفجأة (في وميضٍ من بارقةِ

ضميرٍ، كما لو كان اشتعالُ عود كبريت قد لمع فجأة فوق العمق الغسقيّ لأنايَ)، تبيّنت أنّني كنت أريد فقط أن أشعر بالعار، بيد أنّني في الحقيقة لم أكن أشعر به، وكنت أحسّ، في هذا العمق، حتى بضرب من الفخر الخفيّ وأنّني، أكثر من ذلك، أحسست بالسّعادة كوني قد أنجزت هذا الفعل الأخرق.

كيف أمكن حصولُ هذا؟ بذلت جهدي كلّه، وسط الرّعب الذي استشعرته لحظتئذ من نفسي، حتى أدفع عنّي هذه الملاحظة غير المتوقّعة، لكن إحساسي كان بالغ القوة، شديد الاحتدام. كلّا، إنّ ما كان يغلي بهذه الطّريقة في داخلي لم يكن العارَ ولا الغضبَ ولا القرف من نفسي؛ إنّه الفرح، لأنّ ثمالة الابتهاج هي التي كانت تتأجّج فيّ بألسنة لهب واضحة، تتموّج معتزّة بنفسها ومُلقية بشررها. كنت أشعر أنّني قد عشت بالفعل حياتي في هذه اللّحظات، للمرّة الأولى منذ سنوات خلت، وأنّ أحاسيسي لم تمت وإنّما كانت من قبل مشلولة، وأنّه لا تزال تجري تحت الرّمل المصطنع للا مُبالاتي ينابيعُ الشّغف الفوّارة، وقد لمسَتها عصا المصادفة السّحرية، فانبثقت لتوّها رقراقة واجتاحت خافقي. هكذا إذاً، كان لا يزال يتأجّج فيّ أنا، فيّ أنا أيضاً، في هذه الذرّة

الكونية الخفّاقة التي أُمثّلها، هذا الرشمُ البركاني الذي هو أصل لكلّ الوجود الأرضيّ، والذي يذوي في بعض الأحيان تحت البروز المقلقل للرّغبة. أنا أحيا. أنا أيضاً حيّ. أنا كائن بشريّ برغبات سيئة شديدة الاضطرام. كان اجتياحُ هذا الشّغف قد فتح لتوه باباً بعنف. انحفرت في داخلي هوة، وفي حمأة دوارٍ من اللّذة رحت أنظر بثبات لهذا الأمر المجهول الكامن فيّ والذي كان يُرعبني ويُسعدني في آن. جعلت أنزل ببطء (بينما كانت العربة تسوق بلا مُبالاة جسدي المتفكّر وسط عالم المجتمع البورجوازي) درجة بعد درجة هوة الإنسانية التي انفتحت في داخلي، وحيداً بالكلّية في هذه المسيرة الصّامتة التي لا يُهيمن عليها سوى المشعل الملتهب والعالي لضميري الذي تهلّل فجأة بالنّور. وبينما كان ألف شخص يُلامسونني ضاحكين ومُثرثرين، كنت أبحث عنّي، كنت أبحث فيّ عن الكائن الضّائع وأستكشف السّنوات في الممرّ السحري لاستعادة الذّكريات. انبعثت فجأة أمور كانت قد انصرمت إلى غير رجعة، فطَفَت على صفحة المرآة المغبّرة والجامدة لوجودي. تذكّرت أنّني كنت وأنا تلميذ قد أخذت سكيناً من أحد رفاق الفصل ورحت أتأمّل بنفس الفرح الشّيطاني الطّريقة التي كان يبحث بها

في كلّ مكان سائلاً الجميع مُتخبّطاً. وفهمت فجأة السرّ العاصف الكامن وراء السّاعات المتعدّدة التي أنذرها للمضاجعة. وفهمت أنّ شغفي إنّما كان قد ذوى لأنّه موطوءٌ بالتّوهمات الاجتماعية والمثل العليا لحاملي لقب النبيل. بيد أنّ في داخلي أنا أيضاً، لكن في الأعماق، في أعمق الأعماق، في الآبار والقنوات المدفونة، كانت أمواج الحياة المصطخبة تتدفّق كما يحصل لدى النّاس أجمعين. أوه! إنّه لصحيح حقّاً أنّني قد عشت، لكن دون أن تكون لي الجرأة على العيش، وأنّني كنت قد تدثّرت واختبأت عنّي. لكنّ هذه القوة المقموعة أبانت عن نفسها الآن فهيمنَت على الحياةِ، هذه الحياةِ الغنية والقوية، وأنا على علم الآن بأنّني لا أزال أنتمي إليها. ومع هذه المفاجأة السّعيدة، الشّبيهة بالتي تشعر بها المرأة عندما تُحسّ لأوّل مرّة بالجنين يتحرّك في أحشائها، شعرت بالحقيقة (كيف يُمكنني التّعبير بطريقة أخرى؟) تولد في داخلي، شعرت بالحياة الأصيلة المجرّدة من أي قناع. شعرت فجأة فيّ بالرّجل العجوز الميت (أكاد أكون خجِلاً من كتابة هذه الكلمة) يُزهر من جديد، وأحسست بدمٍ أحمرَ مُصطخب يدور في عروقي، فرأيت فواكه غير معروفة بحلاوتها ومرارتها تنضج في كينونتي. تجدّدت بي

معجزة تانوزير[1] وسط النّور السّاطع لحلبة السّباقات في خضمّ اصطخاب الآلاف من الأشخاص الذين لا شُغل لهم: لقد استعدت حساسيتي وراح الغصن المتيبّس يخضرّ ويتبرعم.

حيّاني رجل من عربة مرّت بالقرب منّي (لم أكن بالتأكيد قد انتبهت لتحية أُولَى ألقاها عليّ) مُنادياً إياي باسمي. سَرت فيّ رعشة عدم الرّضا، مستاءً من أن أكون هكذا قد أُزعجت في هذه الحال السّائغة من الرقّة الداخلية المتجسّدة في حلم يقظة عميق لم يسبق لي أن عشت مثله من قبل. لكنّني صرت كأنّني ضائع ما أن رأيت هذا الشّخص. إنّه صديقي ألفونسو، رفيق مدرسة طيّبٌ أضحى وكيلاً عامّا للإمبراطورية. وفجأة جعلتني فكرةٌ أرتجف: «هذا الرّجل الذي يُحييك كأنّه شقيقك، أضحى له الآن عليك سلطان. فهو لو علم بفعلك القبيح لكبّل يديك. إن علم بما اقترفته سيكون واجبه هو أن ينتشلك من هذه العربة وأن يفصلك عن بذخك وعن

(1) أسطورة تحكي عن تانوزير (Tannhäuser) الذي تجرّأ في مسابقة شعرية وارتجل أبياتاً غزلية فاحشة، فحُكم عليه بالموت، لكنّ حبيبته إليزابيث شفعت له فعاش بعد أن كان مُهدّداً بالقتل. (المترجم)

وجودك البورجوازيّ فيُرسلك لتقضي ثلاث سنوات أو خمساً خلف الكوة المسيَّجة لحبس مُظلم، مع حثالة المجتمع، رفقة لصوص آخرين سَوطُ الحاجةِ وحده هو ما أدّى بهم إلى زنازينهم الخشنة». لكنّ رعدة الخوف لم تُرعش يدي إلّا لحظة وجيزة، ولم توقف خفق قلبي سوى ثانية، ثمّ ترك هذا الشّعورُ، هو بدوره، مكانه لشعور مُحتدم وفخرٍ وقح وعجيب، ينظر إلى باقي الآدميين بازدراء، واعٍ بنفسه، يكاد يكون ساخراً، وقلت في سرّي: «كم ستتجمّد بسرعة على حافتَي شفتيك هذه البسمة الرّقاقية الرّقيقة التي تُحييني بها، لو شككت في أمري! لَكُنتَ دفعت عنك بيد مُحتقرة وغاضبة تحيتي وكأنّها لطخة وسخة. لكنّني قد رفضتك قبل أن ترفضني. إنّني قد سارعت، في هذه الفترة من ما بعد الظّهر، خارج عالمكم البارد والمتجمّد الذي لم أكن فيه سوى عجَلة، عجلة تشتغل بصمت في هذه الآلة الضّخمة التي ضُبط تركيبُها ببرود فراحت تدور بزهو حول نفسها. لقد نزلتُ هوةً غير معروفة، لكنّني أحسستني في هذه السّاعة الفريدة أكثر حياة ممّا كنته خلف زجاج نافذة، بينكم، لسنوات كانت شبيهة بالموت. أنا ما عدت الآن من أقاربكم، وكففت عن الانتماء إليكم. أنا الآن أوجد في مكان ما،

في الخارج، سواء في حفرة أو في علٍ، لكنّني ما عدت البتّة ماثلاً على الأرض المجتاحة بطَمي بورجوازيتكم المرتاحة. لقد أفصحتُ للمرّة الأولى عن كلّ ما يوجد لدى الرّجال من رغبات، الطّيبة منها والسّيئة. لكنكم لن تعرفوا أبداً وجهتي، ولن تستطيعوا أبداً التعرُّف إليّ. أيّتها المخلوقات المسكينة، ماذا عساكِ تعرفينه من سرّي؟».

كيف يُمكنني وصف شعوري في تلك اللّحظة وأنا أمرّ، في هيئة رجل نبيل أنيق، بين صفوف العربات وأتلقّى التحيات وأُلقيها، بوجه جامد بارد؟ ذلك أنّه بينما كان قناعي، أي الرّجل الذي كنته من قبل، الرّجل الخارجي، لا يزال يتعرّف الوجوهَ ويُلاحظها، كانت تُصدي في داخلي موسيقى مُدوّخة جدّاً وجدتُني مُضطرّاً لمعاندتها حتى لا أترك شيئاً من هذا الغليان الداخلي يتسرّب. لقد كنت متأثّراً جدّاً إلى درجة أنّ هذا التخمُّر الكامن فيّ كان يُسبّب لي ألماً جسدياً، فأُمسي مثل شخص يختنق، أُشنِّج كفّي على صدري حيث يخفق قلبي ويؤلمني. بيد أنّ أحاسيس الألم والفرح والخوف والرّعب والحسرة لم تكن تنتابني منفصلة بعضها عن بعض، وإنّما تتمازج كلّها، وكنت أشعر فقط أنّني أحيا

وأتنفّس وأنّ حياتي يغشاها ارتجاف، فأثملتني هذه البساطة وهذا الشّعور البدائيّ الذي لم أعرفه طوال أعوام. لم يسبق لي أبداً، ولو في لحظة واحدة من سنواتي السّت والثّلاثين، أن أحسستُني منتشياً بالحياة كما أحسست في هذه السّاعة.

توقّفت العربة في ارتجاج خفيف. التفت الحوذي من على مقعده بعد أن كبح لجام الفرسَين وسألني إن كنت أريد العودة إلى بيتي. خرجت من اضطرابي وجعلت أنظر في الممرّ. لاحظتُ مُفاجَأ المدّة التي استغرقها حلمي، وإلى أيّ درجة كانت ثمالتي قد أنستني انصرام الوقت. كان اللّيل قد أرخى أستاره وكان أمر ما لطيف يطفو على قمم النباتات، فراحت أشجار الكستناء تتضوع بشذاها المسائي الطري، بينما أطلّ السنا الفضّي والمقنَّع للقمر. هذا يكفي، فوجبت العودة! لكن علي الآن أن لا أرجع بالخصوص إلى بيتي، أن لا ألتحق بعالمي المعتاد! أدّيت للحوذي. عندما أمسكت بحافظة النّقود وشرعت أعدّ الأوراق المالية، أحسستُ بما يُشبه صعقاً كهربائياً من قمّة أصابعي إلى منبتها. من المفروض إذاً أن يكون لا يزال فيّ شيءٌ من الرّجل القديم الذي يشعر بالخجل. لا يزال يهتزّ الضمير الميت للرجل النبيل، لكنّ كفّي كانت

قد عادت من جديد تعدُّ بهدوء تامّ الأوراق المالية المسروقة فجعلتني فرحتي أغدو كريماً. شكرني الحوذيّ بحرارة حتى أنّني وجدتني مضطرّاً للتبسُّم: آه لو كنتَ تعلم! أخذ الفرسان يسحبان فأقلعت العربة. طفِقتُ أنظر إليها وكأنّني على متن سفينة أُلقي بآخر نظرة على شاطئ عشت فيه لحظات سعيدة.

ظللت لحظةً هكذا حالماً ومتردّداً وسط الحشد الهامس والضّاحك والمشمول بالموسيقى. كانت السّاعة السّابعةَ مساء تقريباً. ودون تفكير ملتُ نحو «ساشيرغارتن» الذي اعتدت أن أتعشّى فيه مع الأصحاب، كلّما قمت بجولة في براتر، وقد وضعتني العربة ها هنا عنوة دون شكّ. لكنّني ما أن لمست مقبض باب سياج هذا المطعم الأنيق حتى أوقفني أمر ما: لا، فأنا لا أُريد العودة إلى الوسط المعتاد، ولا أُريد أن يختفي هذا التخمُّر الرّائع الذي يملأ عليّ خفية كياني، بهذه السّرعة أثناء مُحادثة مبتذلة، ولا أُريد أيضاً التخلّي عن السحر البرّاق للمغامرة التي أشعر أنّني في غمرتها منذ ساعات متعدّدة.

كانت موسيقى بهيمة وغير واضحة تأتي من مكان ما. ودون تفكير سرت في اتّجاهها، لأنّ كلّ شيء كان

يجلبني نحوه يومئذ. كنت ألتذّ بأن أترك نفسي للمصادفة، وكانت هذه الطّريقة الكسلى في أن أتركني أُحمَل بالحشود ذات التّموجات الرّخوة تجلبني على نحو عجيب. كان دمي يغلي وسط الاصطخاب الدّافئ والضاجّ لهذه الكتلة الآدمية السّميكة، وكُنت مُحفّزاً ومُثاراً، وقد أضحت حواسّي كلّها أكثر حيوية بسبب هذا الاحتدام الدّاكن والثّقيل المشكّل من الأنفاس والغبار والعرق ودخان السّجائر. ذلك أنّ ما كان يُقرفني، منذ زمان وحتى الأمس، بوصفه عامّاً ومشتركاً ومُتداولاً، وكلَّ ما كان الرجل النبيل الثاوي فيّ قد تحاشاه بعجرفة طوال حياته، راح يجلب كما لو بفعل السّحر غريزتي الجديدة وكأنّني قد عثرت، للمرّة الأولى، وسط هذه البشرية، وسط هذا الوجود المندفع والمبتذل، على انسجامي مع ذاتي. هنا، برفقة حثالة المجتمع وسط العساكر والخادمات وشذّاذ الآفاق، كنت أشعر أنّني مُرتاح بطريقة أجد نفسي عاجزاً عن تفسيرها. رحت أستنشق بنهم الرّائحة الحادّة السّائدة في الجوّ. كان رائعاً عندي أن أكون هكذا مدفوعاً ومضغوطاً وسط كتلة صلبة، فشرعت أنتظر بفضول لذيذ كي أعرف إلى أين المستقرّ، وسط هذا الغياب التّام لإرادتي. أصبحت أصوات

الخنفساء وصخبها قريبة جدّاً من موسيقى «واريتير-براتر». وكانت الآلات الموسيقية تُصدر بطريقة مُتحمّسة في رتابتها موسيقى «بولكا» خشنة وألحاناً راقصة ضاجّة. وما بين وصلة موسيقية وأخرى كانت تُسمع ضربات بهيمة قادمة من الأكواخ، وتعلو قهقهات وتُصدي صرخات سُكارى، فشرعت أرى في تلك اللّحظة لُعب طفولتي بأضوائها الصّاخبة وهي تلفّ بين الأشجار. مكثت ثمّة وسط السّاحة، تاركاً نفسي تُجتاح بكلّ هذه الضّوضاء التي تملأ في آن عينَي وأذنَي. كنت أشعر بالارتياح وسط شلّالات الصّخب هذه، وهذا الهرج والمرج الجحيمي، لأنّني كنت أجد في هذه الزّوبعة أمراً يُسكّن تخمّري الدّاخلي. نظرت إلى الخادمات رافعات فساتينهنّ وهنّ يُقذَفن نحو السّماء على الأرجحات، مُطلقات صرخات لذّة حادّة تبدو كأنّها صادرة من بين أفخاذهنّ. صِبيانُ جزّارين يوجّهون ضاحكين ضربات مطرقة عنيفة لآلة قياس القوّة. منادون بصوت أجشّ وسحناتٍ قردية يُطلقون نداءات تعلو ضجيج الآلات الموسيقية. كانت هذه الضّوضاء كلّها تتداخل مع ألف وشوشة صادرة عن الحشود المتحرّكة باستمرار في قمّة سكرها بماء حياة الصّخب وبالنّور المشعشِع وبالبهجة الحارّة التي ينضح بها

هذا التجمُّع. منذ أن استيقظت (من خَدَري) أنا نفسي جعلت على الفور أشعر بحياة الآخرين. استشعرت الاحتدام الحارق لهذه المدينة التي يسكنها الملايين، فراح هذا الاحتدام، بعد أن تحكّم في نفسه حتى الآن، يصطخب في هذه السّاعات القليلة من يوم الأحد، مُعرباً عن ابتهاج بهيم وحيوانيّ، لكنّه سليم في المجمل وغريزيّ، في حالات الإثارة النّاتجة عن امتلائه الخاصّ به. وشيئاً فشيئاً، شرعت أُحسّ باضطرامهم المتوحّش يخترقني، بسبب احتكاكي بهذه الأعداد الغفيرة وباتّصالي المستمرّ بهذه الأجساد الملتحمة والمتحرّقة شغفاً. انشدّت أعصابي وقد عضّتها روائحهم القوية، وتحفّزت للخروج، ولعبت حواسّي المبلبلة مع هذا الخليط، مُفصحة عن الاضطرام الملتبس الذي عادة ما يختلط بكلّ لذّة كثيفة. كنت أشعر لأول مرّة، منذ سنوات وربّما في حياتي، بالحشود. شعرت بالنّاس بوصفهم قوة تنبع منها متعة وتلجني، تلج شخصي. تهدّمَ حاجز فخرج الموج من عروقي متدفّقاً لينتشر في هذا الكون ثمّ يعود إلى الخلف مُوقَّعاً. سيطرت عليّ رغبة جديدة؛ رغبةُ أن أرى آخر قِشرةٍ بيني وبين الآخرين تتحطّم، وتوقٌ أحمقُ لمضاجعة هذه البشرية الغريبة والحارقة والمشغوفة. بغلمة

الذّكر، كنت أتحرّق للانتشار في الثّدي المنتفخ لهذا الجسد العملاق المترع احتداماً، وبغُلمة الأنثى كنت قابلاً لتلقّي أيّ اتّصال وكلّ نداء وكلّ إغواء وكلّ ضمّة. أنا على بيِّنة من ذلك الآن: الحبّ يوجد بداخلي، وتوجد أيضاً الحاجة إلى الحبّ، كما كانت الحال فقط أيام مُراهقتي المضطربة. أوه! أن أستطيع الولوج، ولوج هذه الحياة وأن ألتحم بهذا الحشد في شغفه المرتعش واللّاهث والبهيج، وأن أنتشر فيه وأن أخلط انسيابي بانسيابه! أن أصير في منتهى الصّغر، مجهولاً بالكلّية وسط هذه الدّوامة، وأن لا أكون سوى حيوان في منتهى الصّغر في ماء مزهرية الكون، كائناً مُرتعشاً ومُتحرّقاً غُلمةً في البحيرة المتحرّكة المترعة بما لا يُعدّ ولا يُحصى من تلك الحيوانات الدّقيقة، علّني أستطيع أن أُمتصّ بهذا الامتلاء وأن أُشارك في هذه الجولة وأن أنطلق مثل سهم بعيداً عن فردانيتي الشّخصية، في المجهول، نحو أيّ سماء يتمّ الإجماع عليها!

أنا الآن أعي ذلك: لقد كنت سكران في تلك اللّحظة، فكان كلّ شيء يهتزّ مُجتمعاً في دمي: ضربات النواقيس وضجيج اللُّعَب والضحكة الرقيقة والشهوانية للنساء وهنّ بين أحضان الرجال، والموسيقى الصاخبة

والبدلات اللامعة. كان كلّ صخب معزول يلجني بحدّة ثمّ يعود ليُلامس صُدغَي مُلقياً عليّ شُعاعاً نابضاً. كنت أشعر بكلّ احتكاك وبكلّ نظرة، مع إثارة رائعة لأعصابي (إثارة شبيهة بتلك التي نستشعرها من دوار البحر)، بيد أنّ هذا كلّه كان يمتزج، مع ذلك، في وحدة مُدوّخة. يستحيل عليّ العثور على الكلمات التي بمستطاعها التّعبير عن حالتي المعقّدة، وربّما استطعت القيام بذلك بالأحرى عن طريق المقارنة إذ أقول إنّني كنت مُحاصراً من كلّ جانب بالضوضاء وبالأصوات والمشاعر، ساخناً مثل آلة تدور بقوة راغبة في التخلُّص من الضّغط العالي الذي سيُفجِّر المرجل بعد حين. كان دمي الملتهب يرتعش إلى أطراف أصابعي وينبض على صدغَي ويضغط على حنجرتي مُهدّداً بخنقي. بعد سنوات من الدّفء، ها أنذا أُسارع فجأة إلى أحضان حمّى جعلت تستنزفني. كنت أشعر أنّني بحاجة إلى أن أنبَقِرَ وأن أخرجَ من ذاتي فأتواصل مع الآخرين بكلمة أو بنظرة، وأن أنتشر واهباً نفسي لشخص ما، مُهملاً ذاتي، هارباً من فردانيتي كي أصبح طرفاً في جماعة. في كلمة، أن أتحرّر بشكل من الأشكال من قوقعة الصمت الصلبة هذه التي تعزلني عن كلّ عنصر حيّ ودافئ ومتفتّح. لم أكن قد تلفّظت بكلمة

منذ ساعات ولم أكن قد صافحت أحداً ولا استشعرت أمامي نظرة أحد، مُتسائلة كانت أو مُتعاطفة. إنّ إثارتي المتصاعدة الآن، بفعل جريان الأحداث، تُريد أن تضع حدّاً لهذا الصّمت. لم يسبق لي قطّ، قطّ، أن شعرت بالرّغبة في التّواصل مع أحد وأن يكون بالقرب منّي كائن بشريّ، كما هي الحال الآن، الآن وأنا أُبحر وسط آلافٍ، عشرات الآلاف من النّاس مُبلّلاً من كلّ جانب بأمواج من الدّفء والكلمات، دون أن يكون لي، مع ذلك، أيّ نصيب من تمدّد هذه الأعداد الغفيرة وتحرّكها. كنت كنَحوِ شخص يموت عطشاً في عرض البحر. كما أنّني كنت أرى من حين إلى آخر، وهو ما كان يُضاعف اضطرابي، على يميني وعلى شمالي، هؤلاء الأغراب يزدادون بهاءً ويتّصلون بعضهم ببعض؛ كنت أرى هذه الكُوَيرَات الزّئبقية الصّغيرة تتجمّع كما يحدث أثناء اللّعب. استبدّت بي الريبة عندما رأيت فتياناً يُحدّثون أثناء مرورهم غريبات شابّات، فيأخذون بأذرعهنّ مع أول كلمة، فيقوم بينهم تدانٍ وتلاقٍ. كانت تحيةٌ عابرة ونظرة تُلقَى أثناء المرور تكفي لإجراء محادثة بين الأغراب، قد تتوقّف ربّما بعد بضع دقائق، لكنها كانت تُنشئ، مع ذلك، علاقات واتّحاداً وتواصلاً، فكنت أرى أمامي كلّ

ما كانت تتطلّع إليه أعصابي. جعلت، أنا الذي كنت مُحدِّثاً لا يُشقّ له غبار يُحبّ النّاسُ في تجمّعاتهم الاستماع إليّ، والدَّرِبُ على كلّ أشكال المحادثات؛ جعلت أرتعد خوفاً، فخجلت من الاقتراب من إحدى هؤلاء الخادمات ذات الأوراك الواسعة، مخافة أن تتّخذني هزؤاً. وكنت حتى أُنكّسُ بصري عندما ينظر إليّ أحدهم مُصادفة، في حين أنّني كنت أتحرّق شوقاً إلى الحديث. أنا نفسي لم أكن أتبيّن بوضوح ما أشتهيه من هذه الكائنات البشرية. كنت أعرف فقط أنّه يستحيل علي أن أستحمل لمدّة أطول البقاء وحيداً، فريسة لحمّاي. لكن الجميع كانوا يمشون ويؤوبون دون أن يحفلوا بي. كلّ نظرة كانت تمسحني من الوجود، ولم يكن أحد يودّ مُلاحظة حضوري. وفي لحظة مرّ بجانبي طفل في حوالي الثّانية عشرة من عمره مُرتدياً أسماله. كانت نظرته تلمع وسط انعكاسات الأضواء، لشدّة الرّغبة التي كان ينظر بها إلى لفّ الجياد الخشبية، فاغراً فاه بنهم. لا شكّ أنّ نقوده نفدت فاكتفى بتحصيل لذّته من صرخات الأطفال الآخرين وضحكاتهم. أمسكت به، مُزاحماً مجاوريه، وسألته (لكن لماذا كان صوتي يرتعش إلى هذه الدّرجة وتعبره نبرة صارخة؟): «ألا تُريد أن تقوم أنت أيضاً

بلفّة؟»، تفحّص وجهي وارتعب (لماذا، لكن لماذا تضرّج وفرّ دون أن يُجيبني بكلمة؟). حتى هذا الفتى العاري والحافي القدمين لا يُريد أن يُحقّق لي مُتعتي. لا شكّ أنّ فيّ -أنا أستشعر ذلك- أمراً ما رهيباً وغريباً يَحُول هكذا بيني وبين الارتباط بأحد، حتى أنّني أجدُني في خضمّ هذه الكتلة المتراصّة أواصل الطفو معزولاً مثل قطرة زيت على وجه الماء المصطخب.

لكنّني لم أفقد الأمل، لأنّني كنت غير قادر على البقاء بمفردي لمدّة أطول. جعلت رجلاي تُؤلمانني في حذائي البرّاق وقد علاه الغبار، وبدت حنجرتي كأنّ الروائح قد كلّستها. التفتُّ حولي، فكانت أمواج بشرية ترسم تيارات على يميني وعلى يساري، مع وجود جُزيراتِ خُضرةٍ وحاناتٍ على موائدها أغطية حمراء تُحيط بها مقاعد خشبية متواضعة يجلس عليها أناس بسطاء وهم يشربون من كؤوس جعتهم مُدخّنين نوع السجائر الذي لا يشترونه إلّا يوم الأحد. جذبتني هذه اللّوحة: أمامي أشخاص لا تقوم بينهم معرفة مسبقة وهم جلوس أحدهم قبالة الآخر يتحادثون. هنا يوجد شيء من الرّاحة في حمأة هذه الحمّى المستعرة. دخلت إحدى الحانات وتفحّصت الموائد فعثرت أخيراً على واحدة استقرّت

حولها أُسرة مؤلّفة من مستخدم بدين قصير، برفقة زوجته وفتاتين حسناوين وطفل صغير. شعرت بالارتياح من أرجحتهم رؤوسَهم بتوقيع ومن تبادلهم المزحَ، تعكس نظراتهم المرتاحة سعادة عيشهم. حييتهم ووضعت كفّي على مقعد وسألت إن كان فارغاً. تجمّدت بسمتهم على الفور، وصمتوا لحظة (كما لو كان كلّ منهم ينتظر أن يوافق الآخرُ)، ثمّ قالت المرأة كأنها مُنزعجة قليلاً: (أهلاً وسهلاً، تفضّل). جلستُ وحصل لديّ انطباع بأنّ قدومي قد أفسد عليهم مزاجهم المبتهج، لأنّ صمتاً ثقيلاً ران حول المائدة. ودون أن أجرؤ على رفع بصري من على غطاء المائدة ذي المربّعات الحمراء المنثور عليها ملح وفلفل، كنت أشعر أنّ هؤلاء الأشخاص جميعاً يُراقبونني مُتسائلين. فهمت (متأخّراً قليلاً) أنّ ملابسي كانت أشدّ تأنّقاً من أن يُلائمني ارتيادي هذه الحانةَ التي يغشاها أشخاص بسطاء، مُرتدياً بذلتي الشّبيهة ببذل المراهنين على الخيل ومُعتمراً قبّعتي الحريرية على الطّريقة الباريسية وقد ثُبّتت ألماسةٌ على ربطة عنقي الشبيه لونُها بلون عنق الحمامة. كانت أناقتي وهذا العطرُ الفاخر الذي يتضوع منّي قد حفرا حولي على الفور، هنا أيضاً، خندقاً من الانزعاج والعداء. حملني صمت هؤلاء

الأشخاص الخمسة على تنكيس بصري أكثر فأكثر على المائدة التي عددت مُربّعات غطائها الحمراء وأعدت عدّها بحسرة غامضة، وقد سمّرني في مكاني شعوري بالانزعاج من النّهوض على الفور والانصراف، بيد أنني كنت أخجلَ من أن أُوجِّه بصري المضطرب إلى مكان آخر. أحسست أنّني حظيت بالخلاص عندما حضر النّادل أخيراً ووضع أمامي كأس جعة ضخمة. استطعت أخيراً، في تلك اللّحظة أن أُحرّك يدي وجعلت أثناء شربي من الكأس أنظر خجِلاً من فوق حاشيتها. كانوا في الحقيقة يُراقبونني خمستهم دون كراهية، لكن بانبهار أخرس، مع ذلك. لقد تعرّفوا فيّ إلى دخيل اقتحم عليهم عالمهم الضيّق. إنّهم يُخمّنون، بالغريزة السّاذجة الخاصّة بطبقتهم الاجتماعية، أنّني أُطارد هنا شيئاً، باحثاً عن أمرٍ ليس من صميم طبقتي، وأنّ هذا الأمرَ ليس الحبّ ولا التّعاطف ولا البهجة العادية التي تُحدثها الرّقصات والجعة ولا هذه النّزهة الهادئة ليوم الأحد، وأنّني مأخوذ برغبة ما لا يفهمونها ويحتاطون منها، تماماً كما كان الطّفل أمام ساحة اللعب قد احتاط من اقتراحي وكما كان الآلاف من الأشخاص غير المعروفين الحاضرين ثمّة ضمن الحشد قد أشاحوا بأبصارهم عن أناقتي وعن هيئتي الموحية بعلوّ

طبقتي، بضرب من العدوانية اللّاواعية. غير أنّني إن استطعت الآن -أنا أشعر بذلك- العثور على كلمة بسيطة ودّية أحدّثهم بها، كلمةٍ ذات طابع إنساني حقيقي، فإنّ الأبَ قد يُجيبني أو قد تُجيبني الأمّ، وستتبسّم الفتاتان مُجاملةً، وسيكون بإمكاني أن أذهب هناك، برفقة الطّفل إلى مكان الطّلق، كي أنخرط معه في تسالٍ طفولية، فأكون بعد خمس دقائق قد تحرّرت من نفسي مشمولاً بالجوّ البريء لمحادثة هؤلاء النّاس البسطاء الذين سيقبلون بسهولة أُلفتي وربّما جعلهم ذلك يشعرون ببعض الزّهو. لكنّني لم أعثر على هذه الكلمة، هذا المدخل إلى ما أرغب به. كان خجل كاذب وأخرق، لكن شديد القوة، يعصر حنجرتي، وكنت جالساً، العينان مُسبلتان كأنّني مُجرم، إلى مائدة هؤلاء الأشخاص الأفذاذ، مُفصحاً عن حزني من أنّني قد أفسدت عليهم بحضوري نهاية يوم أحدهم هذه. كنت ثمّة كأنّني مُسمّر في مكاني، مُكفِّراً عن كلّ سنوات العجرفة واللامبالاة التي مررت بها دون أن أُلقي بنظرة واحدة أمامي على مئات ومئات من الموائد المشابهة، وإلى آلاف وآلاف من الكائنات البشرية، إخوتي، مشغولاً فقط بتحصيل فوائد ونجاحات ضمن الحلقة الضّيقة لعالم الأناقة الذي كنت قد انحشرت

فيه. أحسستُ أنّني في حاجة إلى هؤلاء النّاس، لكنّني شعرت في لحظة الإقصاء هذه أنّ الطّريق التي تقودني إليهم مقطوعة أمامي.

كنت إذاً جالساً -أنا الذي دائماً ما كنت في حلّ من كل العلاقات- مُبلبَلاً بعمق، أُكرّر عدّ المربّعات على الغطاء. مرّ النّادل أخيراً بجانبي فناديته وأدّيت له وانتصبت واقفاً أكاد لا أكون قد شربت شيئاً ممّا في الكأس من جعة وحييتهم بأدب. ردّوا علي تحيتي بلطف، مُفاجَئين قليلاً، ولم أكن في حاجة إلى الالتفات كي أعرف أنّ البهجة والحياة الآن، خلفي، ستكتنفان جلستهم، وأنّ الحلقة الدّافئة لحديثهم سُرعان ما ستعود للانعقاد بعد أن تمّ لفظ الجسم الدّخيل.

ألقيت بنفسي من جديد في الدّوامة البشرية، لكن هذه المرّة بطريقة أشدّ نهماً وأكثر احتداماً ويأساً. كان الحشد قد أمسى أقلّ كثافة تحت الأشجار التي تنطلق أغصانها نحو السّماء، فغدت الحركة قليلة والضّجيجُ أخفَتَ وأقلّ تواتراً في الحلقة المضيئة للعبة الجياد الخشبية، وما عاد ثمّة إلّا اصطخاب في بؤرة داكنة على الطّرف الأقصى للسّاحة. كما أنّ ثرثرات النّاس المرتفعة والصّاعدة من أعماقهم مُترعةً بهجةً، جعلت تتناثر في

شكل وشوشات متعدّدة، تخفت كلّما عادت الموسيقى للارتفاع من مكان ما، قوية ومسعّرة، كما لو أنّها تروم استعادة الفارّين. غَشَتِ المكان وجوهٌ من نوع آخر. كان الأطفال قد انصرفوا حاملين كراتهم المنبعجة، وانسحبت العائلات المحبّة لنزهات يوم الأحد. بدأ يأتي سكارى ضاجّون، وجعل أطفال يخرجون من الأزقّة المجاورة قادمين مُرتدين ملابسهم القذرة، يسحبون خطاهم، لكن في أتمّ يقظتهم، مع ذلك. كان هذا العالم الغريب قد يمّم شطر الابتذال، خلال السّاعة التي قضيتها أنا على مائدة أولئك الغرباء. بيد أنّ هذا الجو المليء وقاحةً والفوّاحَ خطراً، راقني أكثر من الجو الذي ساد قبلُ، بنزهته الأَحَدية ذات الطّابع البورجوازي. استشعَرَت الغريزة المستيقظة في داخلي توتُّرَ لذّةٍ مُشابهاً لسابقه. عثرت على صورةٍ لِلَذَّتِي في المسيرة المتسكّعة لهذه الكائنات المشبوهة ولمنبوذي المجتمع هؤلاء؛ فهُم مثلي يبحثون هنا، متعجّلين، عن مغامرة ملتبسة ما، وعن عاطفة سريعة، فوصل بي الأمر أن غبطتهم -هؤلاء الأشخاص الذين يبدون غريبين في أسمالهم- على الطّريقة المتحرّرة والجرّيئة التي يتجوّلون بها، لأنّني كنت، من جانبي، واقفاً مُستنداً إلى سارية إحدى لعب

الخيول الخشبية، لاهثَ الأنفاس، مُتعجّلاً التّخلّصَ من ضغط الصّمت ومن بلبال وحدتي، غير أنّني كنت مع كلّ ذلك عاجزاً عن إصدار صرخة أو كلمة أو حركة. كنت ثمّة أنظر بجمود نحو السّاحة المُنارة بانعكاسات الأضواء المتلألئة الدوّارة، وأتفرّس من وسط ظلمةِ جزيرتي المضيئة -في حمأة انتظاري المتأجّج- كلَّ كائن بشريّ يتوجّه، مجلوباً بهذه الإنارة الحيوية، إلى جهتي لحظةً. لكنّ كلّ العيون كانت تنزلق عليّ ببرود، لا رغبةَ لأحد فيّ، فلم يعمل أحد على تخليصي من حالي.

سيكون من باب العَتَهِ، أنا أعرف ذلك، أن أرغب في إفهام شخص ما، أو أن أشرحَ له بأنّني، أنا الرّجل المثقّف والأنيق المنتمي إلى الطبقة الراقية والغني والمستقلّ والمعتاد على مُخالطة الطّبقات العليا في مدينة يزيد سكانّها على المليون، قد بقيت هنا واقفاً ساعة كاملة، خلال هذه اللّيلة، مُستنداً إلى ساريةِ لعبة الخيول الخشبية بالبارتر، مُتابعاً دورانها الرّتيب المصحوب بموسيقاها ذات الأصوات غير المتناغمة، وأنّني قد استمعت عشرين مرّة، أربعين مرّة، مئة مرّة إلى موسيقي «البولكا» النّشاز نفسها، وإلى نفس الموسيقى الرّاقصة المتهادية، واقفاً بلا حراك أمام الدّوران نفسه لرؤوس

الجياد البلهاء المصبوغة، وفقاً لضرب من التحدّي الغامض الذي صار كأنّه قدَري، راغباً في جعل مصيري في خدمة نزوتي. أنا أعلم أنّني كنت أتصرّف خلال هذه السّاعة على منوال شخص تافه، لكنّ كثافةً ما لمشاعري كانت كامنة في عنادي الأحمق هذا، مع نحوٍ من التقلّص الحادّ لعضلاتي ممّا لا يعرفه الرّجال دون شكّ إلّا لحظة السّقوط في الهاوية، مُباشرة قبل مُفارقة الحياة. كانت حياتي التي بقيت حتى الآن تمضي في الفراغ، قد جعلت فجأة تنحسر فيّ صاعدة إلى حنجرتي. وبقدر ما كُنت مُبلبَلاً برغبتي الخرقاء في البقاء هنا بعناد إلى أن تأتي كلمة أو نظرة من كائن بشريّ لتخلصني، كان بلبالي يشكّلُ عندي مُتعة. وفي هذا المكان -في هذا الضّرب من «عمود التّشهير»- كنت أُكفّر عن دفء حياتي الماضية وفراغها وخمولها، أكثر ممّا عن سرقتي، فأقسمت أن لا أُغادر قبل أن تبشّرني علامةٌ ما بأنّ القَدَر قد سامحني.

وبقدر ما كان الوقت يمضي كان اللّيل يزداد كثافة. انطفأت الأضواء في الأكواخ تباعاً، فلم يكفّ الظّل عن التضخّم كأنّه موج يزداد عُتُواً، مُزدرداً البقع اللامعة على العشب. أضحت الجزيرة المضيئة التي كنت فيها أكثر انعزالاً فأكثر، فجعلتُ أنظر إلى ساعتي مُرتجفاً. ربع

ساعة آخر وتتوقّف هذه الأحصنةُ الخشبية المتعدّدة الألوان عن الدّوران، وتنطفئ المصابيح المتوهّجة، الحمراء والخضراء، المثبتة على جباهها البليدة، وتكفّ الآلة الموسيقية عن نشازها. عندئذ سأغرق كلية في الظّلمة فأغدو وحيداً هنا وسط اللّيل الذي تسوده وشوشات خفيفة، منبوذاً بالكلية، متروكاً لحالي. جعلت أنظر أكثر فأكثر إلى الساحة المعتمة والتي نادراً ما يُرى فيها شخصان يتعجّلان العودة أو سكارى يتمايلون. لكن حياةً خفية كانت لا تزال ترتعش في الظلّ المجاور، مُصطخبةً ومُثيرة، فنسمع مرّة صفيراً خفيفاً أو فرقعة لسان عندما يمرّ بضعة رجال، فينجذبون توّاً بهذا النّداء وينتهجون الطّريق نحو العتمة، فتوشوش أصوات نساء عندئذ في الظّلمة وتحمل لي الرّيح مزق ضحكة ضاجّة. جعلت هذه المخلوقات تجرؤ شيئاً فشيئاً على التّقدّم حتى صارت في الطرف القصيّ من العتمة، قريباً من النور المخروطي الشكل للساحة، لكن لتعود على الفور إلى عتمتها، ما أن ترى القبّعة المدبّبة لشرطي عابر، مُنارةً بشعاع من ضوء المصباح. غير أنّ الشرطي ما أن يبتعد قليلاً حتى تعود هذه الأشكال الشبحية وتروح تقترب جدّاً من الضّوء حتى يصير بمقدوري أن ألمح بوضوح منبوذي

العالم اللّيلي هؤلاء وهذا الطّميَ الذي تركته الأمواج البشرية خلفها بعد أن جزَرَت. إنّهن بضعٌ من بائعاتِ الهوى أنهكتهنّ الفاقة والبؤس، لا يملكن سريراً خاصّاً بهنّ، ينمن نهاراً على أفرشة مُرتجلة ويقضين ليلهنّ حائمات لا يسترحن، مسلّمات لأيّ كان، هنا وفي أي مكان، وسط العتمة، أجسادهنّ الهزيلة الوسخة والمستهلكة، مُقابل قطعة نقدية صغيرة. تُطاردهنّ الشّرطة ويُنكّل بهنّ الجوع وأشخاص غريبو الأطوار، متنقّلات من مكان إلى آخر وسط الظّلمة مُطارِدات ومُطارَدات، في آن. يتقدّمن شيئاً فشيئاً، مثل كلاب جائعة، وكأنّهنّ يشتممن أمراً ما في الهواء، في اتّجاه السّاحة المُنارة، بحثاً عن ذكر، عن متشرّد ضائع يستطعن، مُقابل لذّة يوفرنها له، أن ينتزعن منه قطعةَ كورونا أو قطعتين كي يُؤدّين ثمن كأس نبيذ ساخن في حانة بائسة، حتى يحتفظن بلسانِ لهبِ مزقةِ حياتهنّ مُشتعلاً، والذي لن يلبث، مع ذلك، أن ينطفئ قريباً في مستشفى أو وراء أسوار سجن. كنت أرى هؤلاء المنبوذين وهذا الحطامَ الذي خلّفه موج الحسّية من حشد يوم الأحد، وهذه الأشباحَ المتضورة جوعاً؛ كنت أراها تخرج شبحية من الظّلمة فيزداد رُعبي. لكنّه كان لا يزال في هذا الرّعب،

مع ذلك، بهجةٌ سحرية، لأنّني حتى في هذه المرآة الحقيرة كنت أتعرّف إلى أمور نسيتها منذ زمان، فجعلتُ أستشعرها بطريقة غامضة. إنّ هذا لهو العالم المضطرب والسّبخ الذي سبق لي أن عبرته منذ سنوات خلت والذي جعلت ومضاتُه تبرق الآن من جديد في أحاسيسي. يا لها من ظاهرة غريبة أنْ شَرَعتِ الأشياءُ تتحرّك في داخلي بفعل هذه اللّيلة المذهلة، ويا لغرابة الطّريقة التي عرّت بها فجأة أعماقَ كياني، كاشفةً عمّا كان أكثر إظلاماً في ماضيّ، وما كان أكثر خفاءً في غرائزي! استَعَدتُ المشاعرَ البهيمةَ التي سيطرت عليّ في سنوات مراهقتي، والتي قبعت مُكفّنةً منذ زمن طويل في أعماقي، بعد أن كان بصري الخجِلُ في شبابي قد ثُبّت على كائنات مماثلة، مجلوباً بحبّ الاستطلاع، لكن مُضطرباً أيضاً وخائفاً. استعدتُ ذكرى هذه السّاعة التي كنت قد مضيت خلالها، لأوّل مرّة، في أثر إحداهنّ حتى فراشها، بعد صعود سلّم صارّ ورطب. فجأة -وكأنّ طلقة بارود قد حطّمت السّماء اللّيلية- عشتُ من جديد وبوضوح كامل كلّ تفصيل من تلك اللّيلة المنسية: الهالةُ الذّهنية على السّرير والتّميمة المعلّقة في عنق المرأة. استعدت مشاعر تلك اللحظة كلّها، وهذا الثّقلَ الغريب وهذا التّقزّزَ وهذا

الفخر الأوّل الذي يشعر به كلّ شابّ. عبَرَ هذا كلُّه جسدي، فجعلت رؤية واضحة فريدةٌ تترقرق فجأة في داخلي (ما السّبيل إلى التّعبير عن هذا اللانهائي!) ففهمت فجأة أنّني إن كنتُ قد تأجَّجت فيَّ شفقةٌ بهذا الاحتدام على هؤلاء المومسات البائسات، فلأنّهنّ يُشكّلن الملجأ الأخير الذي نفيء إليه في الحياة. لقد فهِمَت غريزتي من الدّاخل، وقد استثارها الشرّ، انتظارَهنّ المتلهّف الشّديد الشّبيه بانتظاري، في هذه اللّيلة الشّبحية، وطريقتَهنّ الآثمة في الاستجابة لكلّ اتّصال ولكلّ لذّة غريبة اندلعت فجأة. كنت مجلوباً بأمر ما مغناطيسي. أحرَقَت حافظةُ نقودي المشتملة على مال مسروق، فجأة، صدري، بينما كنت أشعر ثمّة، في مكاني، بوجود كائنات أنفاسُها حارّة، أنفاسٌ إنسانية، وهي تعبّ الهواءَ وتتحدّث، منادية على كائنات أخرى وعليّ أنا نفسي أيضاً ربّما، أنا الذي لم أكن أنتظر إلّا أن تسنح فرصة كي أهبَ نفسي، أنا الذي كانت تُلهبني رغبة خرقاء في التّواصل مع الكائنات الحية. فهمت فجأة ما يدفع بالرّجال نحو هذه الكائنات. فهمت أنّ السّبب نادراً ما يكون هو الدّم السّاخن أو الرّغبة المتأجّجة، وإنّما هو أيضاً، في غالب الأحيان، الخوف العادي من الوحدة وهذا الانعزال الرّهيب الذي

يفصل بيننا والذي أفصحت عنه حساسيتي المتّقدة اليوم، لأول مرّة. تذكّرت، بشكل مُشوَّش، اليومَ الذي كان قد اعتراني فيه إحساسٌ بهذا الأمر نفسه. حدث ذلك في إنجلترا، بمانشستر، إحدى هذه المدن الفولاذية الجاثمة تحت سماء بلا نور والضّاجة كأنّها قطار أنفاق، باعثةً مع ذلك بارتعاشةِ وحدةٍ تلجك حتى لتدرك دمك. كنت قد قضيت فيها ثلاثة أسابيع عند أقاربَ، أتيه مساءً في الحانات والأندية، وأعود باستمرار إلى القاعة المتلألئة التي تُقدّم مُنوّعات، فقط كي أشعر قليلاً ببعض الدّفء الإنسانيّ. وفي يوم، وقد التقيت بامرأة من هذا الصّنف -لم أفهم لغتها الإنجليزية العامّية إلّا بصعوبة- وجدتُني فجأة في غرفتها، أتملّى ضحكة يُصدرها فمٌ غريب، وقد اضطجع إلى جانبي جسد غضّ ودافئ في المتناول. كانت المدينة الباردة الدّاكنة -ذاك الفضاء الأسود المقَلقَل والمترع وحدة- قد اختفت فجأة فحرّرني كائن لم أكن أعرفه، وقد اعتاد على انتظار كلّ القادمين، فأذاب في داخلي كلّ ما كان تجمّع من جليد، فجعلت أتنفّس بحرّية وشعرت بالحياة في إشراقها اللّطيف، وسط الجليد الفولاذي! يا له من أمر رائع بالنّسبة إلى الوحدانيين، أولئك المسوّرين في دواخلهم، أن يعوا

ذلك وأن يكتشفوا أنّ هناك في مكان ما، ورغم كلّ شيء، سندٌ للقلقين ودعم يُمكِنُهُم احتضانُه رغم أنّه قد وُسّخ بكثرة الاتّصالات وظهرت فيه آثار السّنين وقرضه عفن منتن! هو ذا ما كنت قد نسيته خلال ساعة العزلة المؤلمة تلك، وما جعلني أهيم على وجهي ليلاً هاذياً. فأنا ما كنت تذكّرت أنّ في زاويةٍ ما توجد هذه المناجي الأخيرة؛ توجد هذه الكائنات المنتظِرة، مستعدّة للاستجابة لأيّ التفاتة ولجعل كلّ عزلة تجد مُتنفّسها في أحضانها، ولتهدّئ كلّ اضطرام، مُقابل قطعة نقدية صغيرة لا تكاد تُساوي شيئاً مُقارنة بالأُعطية الفريدة التي تُشكّلها الطّوعية الدائمة لهذه الكائنات، ولما يُخلّفه حضورها الإنساني من ارتياح.

صدحت بجانبي من جديد الآلة الموسيقية للعبة الخيول. كانت تلك لفّتَها الأخيرة، وآخرَ لألأة لهذا الضّوء الدوّار في الظّلمة قبل أن يُخلي يومُ الأحد مكانه لأيام الأسبوع الحزينة، لكن لا أحد عاد مُستجيباً للموسيقى هذه المرّة. عدت الجياد الخشبية فارغة في دائرتها العبثية، وكانت المرأة قد جعلت سلفاً، في الشّباك، مُنهكةً تعباً، تَعُدّ جاسّةً دخلَ اليوم، فأتى مستخدم حاملاً الذّراع الحديدية المعقوفة مُستعدّاً لإنزال

السّتارة الحديدية ضاجّةً على لعبة الجياد الخشبية. ما عاد في المكان أحد آخر غيري، غيري أنا، مُستنداً إلى السّارية ناظراً إلى السّاحة الخالية إلّا من هذه الكائنات الشّبيهة بالخفافيش، والمستطلعة مثلي، والمُنتظرة مثلي أيضاً، لكن منفصلة عنّي مع ذلك بحاجز من الغربة غير قابل للاختراق. لكن يبدو أنّ مخلوقة من بينها قد انتبهت لا شكّ إلى وجودي، لأنّها بدأت تتقدّم نحوي ببطء، أنا أراها جيداً، مُنكّسةً بصرها. إنّها كائن قصير هزيل، لا تعتمر قبّعة، ترتدي بلا ذوق لباساً شبيهاً بالفستان يبدو من أسفله حذاء خفيف بالٍ، وقد ابتاعت ذلك كلّه بلا شكّ قطعة قطعة من تجّار الخردوات أو جملةً من أحد بائعي الملابس القديمة، فأصبح ما ترتديه الآن مُندعكاً ورثّاً بفعل المطر أو بسببٍ من مُغامرات قذرة آتتها على العشب. اقتربت ببطء ثمّ توقّفت بجانبي وألقت علي بنظرة حادّة شبيهة بصنّارة، أتبعَتها بسمةً في شكل دعوة أبانت عن أسنانها الخربة. انحبس تنفّسي وما عدت قادراً على التحرُّك ولا على النّظر ولا أن أتزحزح من مكاني. كنت كأنّني مشلول، أشعر بالقرب منّي بكائن مُترعٍ رغبة، بشخص يدعوني، وبأنّني أخيراً سيكون بإمكاني بكلمة واحدة، بحركة بسيطة أن أطرد بعيداً عنّي هذه العزلة

الفظيعة، وهذا القلقَ من أنّني منبوذ. لكنّني كنت غير قادر على الحركة، على نحو السّارية التي أتّكئ إليها. وفيما يُشبه دواراً لذيذاً (بينما كان اللّحن الموسيقيّ للعبة الجياد الخشبية يُشرف على نهايته) اقتصرتُ على استشعار هذا الحضور بجانبي، هذه الإرادة التي تدعوني، فأطبقت جفنَي لحظةً كي أَترُكني أُجتاح بالجاذبية المغناطيسية التي كان يُمارسها عليّ هذا التجسُّد الإنساني الفريد المنبثق من ظلمة الكون.

توقّفت لعبة الجياد الخشبية عن الدوران وتوقّف اللحن الراقص آنّاً. فتحت عينَي تحديداً كي أرى الكائن ينصرف. من الطبيعي أن تكون هذه المخلوقة قد سأمت البقاء هنا مُنتظرةً بجانب كائن من خشب. ارتعبتُ وصرت فجأة كأنّني من جليد. لماذا تركتها تنصرف، هذه المخلوقة الوحيدة التي قدّمت لي وعوداً، في هذه اللّيلة المذهلة، وحمَلَت همّي؟ كانت الأنوار خلفي تنطفئ وعلا ضجيج السّتائر وفرقعتُها وهي تنزل. إنّها النّهاية.

فجأة (آه! كيف أصف لنفسي هذا الغليان المفاجئ والمضطرم؟)، فجأة (كان ذلك عنيفاً وحارقاً وأشدّ احمراراً من أن يكون شريانٌ قد انفجر في صدري)، فجأة انبعث منّي -أنا الرّجل المتغطرس المنكفئ في مظهره

الوقور وفي بروده الاجتماعي- ما يُشبه ضرباً من التشنّج والصّراخ، ما يُشبه دُعاءً ورغبة طفولية، لكنّها شديدة الكثافة مع ذلك، في أن أرى مرّة أخرى هذه المومس الضّئيلة الهزيلة والقذرة وهي تلتفت نحوي حتى أستطيع مُحادثتها. ذلك أنّني إن كنت لم أتبعها فليس لأنّني شديد الاعتزاز بنفسي فآنف عن ذلك (كان اعتزازي بنفسي قد وطأته الأقدام وانكسر وحلّت محلّه مشاعر جديدة)، وإنّما لأنّني كنت شديد الضّعف وفي أوج تردّدي. وهكذا بقيت في مكاني واقفاً مُرتعشاً ومُبلبلاً، وحيداً، مُستنداً إلى عمود التّعذيب هذا وسط العتمة، مُنتظراً كما لم يسبق لي قطّ أن انتظرت، منذ طفولتي، ومنذ أن كنت في مساء قد وقفت عند النّافذة كي أتملّى امرأة لا أعرفها وهي تخلع ملابسها ببطء، لا تكاد تنتهي من ذلك أبداً، فظلّت عارية دون أن يُخامرها شكّ في شيء. ظللت ثمّة، داعياً بصوت غريب عنّي مُلتمساً من الرّب أن يُقيض لي مُعجزةَ أن تحدو هذا الكائنَ المريض، هذه الفُضلةَ البشرية، رغبةٌ في أن تقوم بمحاولة جديدة وتلتفت نحوي ببصرها.

ثم... التفَتَت. التفَتَت بآلية مرّة أخرى، ناظرة خلفها. لكن يبدو أنّ ارتعاش بصري وجفلَةَ كلّ حواسّي المتوتّرة كانت من القوة حتى أنّها توقّفت وتفرّستني.

استدارت رُبع استدارة وتبسّمت لي وهي تتفحّصني وسط الظّلمة، ثم أشارت عليّ برأسها داعية إيّاي للذّهاب إلى الجهة الأخرى من السّاحة الغاطسة في ظلامها، فشعرت أخيراً باللّعنة الرّهيبة التي تسكنني وبالصّلابة الثاوية في كياني، وقد لانَتا، فاستطعت من جديد أن أتحرّك فأبديت موافقتي بحركة من رأسي.

كان الاتّفاق الضمني قد عُقد، فسارت أمامي عبر السّاحة المُظلمة، مُلتفتة من حين إلى آخر كي ترى إن كنت سأتبعها. وتبعتها. كان الرّصاص الذي يُثقل ركبتيّ قد سقط وطفِقتُ أقدر من جديد على وضع قدم قُدام الأخرى. كانت قوّة مغناطيسية تجلبني، ورحت أمشي بلا وعي، كأنّني أمشي في أثر قوة سحرية. أبطأت المرأة سيرها في الممرّ الفاصل بين الأكواخ، فوجدت نفسي بجانبها.

شملتني لحظةً بنظرة فاحصة حذرة، وكأنّ أمراً جعل ثقتها تهتزّ. لا شكّ أنّ خجلي الغريب وتناقض المكان مع أناقتي كانا يُثيران ريبتها. نظرَت مراراً حولها وتردّدت، ثمّ قالت، مُشيرة إلى عمق الممرّ المظلم مثل نفق لحفر المعادن: «لنذهب هناك. الظّلام دامس خلف السّيرك».

لم أستطع الردّ. كان الابتذال المرعب لهذا اللّقاء

يُحيّرني. وددت التخلُّص من هذا الموقف بأيّ سبيل، كأن أشتري حرّيتي بقطعة نقدية أو أن أبتعد متذرّعاً بسبب مُختلَق، لكنّه لم يكن عاد لإرادتي من سلطان عليّ. كنت كما نكون على مِزلجةٍ هابطين عبر منعرج بسرعة خرقاء فنجد أنفسنا أمام منحدر مُثلج، فيختلط في خاطرنا الخوف من الموت بضرب من اللّذة المثملة، وبدل أن نتوقّف نترك أنفسنا لدَوَارِ السّقوط، فاقدين إرادتنا، شاعرين بضعفنا. ما كنت عدت أستطيع العودة إلى الوراء، كما أنّني لم أكن أرغب في ذلك ربّما، والآن وقد بدأت تنضغط إليّ أمسكتُ بطريقة لا واعية بذراعها. كانت شديدة الهزال. لم تكن ذراعَ امرأة وإنّما طفل عليل وسيّئ التّغذية. ما كدت أستشعر ذلك عبر لباسها الخفيف حتى انتابتني، في خضمّ توتّري العصبي، شفقة قوية وعميقة على مزقة الوجود البائسة هذه، وهذا الحطامِ الذي دفعت به هذه اللّيلةُ نحوي، فجعلَت أصابعي، دون قصد منّي، تجسّ مفاصلها الهزيلة والمريضة بطهرٍ واحترام لم يسبق لي قط أن أحسست بمثلهما أثناء اتّصالي بأيّ امرأة.

عبرنا طريقاً قليل الإضاءة وولجنا أيكة صغيرة تُحدث قممُ أشجارها العملاقة الشّديدة الكثافة ظلمةً بهيمة

ومقرفة. في هذه اللّحظة انتبهت، على الرّغم من أنّنا لم نكن نكاد نميّز أيّ شيء، إلى أنّها مع إمساكها بكفّي كانت تلتفت مُحتاطة، وهو ما قامت به من جديد بعد خطوة أو خطوتين. يا له من أمر غريب! فبينما كنت أترك نفسي تنزلق في هذه المغامرة الخسّيسة، كأنّني مُخدّر، كانت حواسّي تتمتّع بتيقّظ وبانتباه مُرعبين. لاحظت، مُتمتّعاً بوضوحِ رؤيةٍ لا يُفلت منه شيء، يسجّل بدقّة كلّ نأمة تصدر عن كياني، أنّ ضرباً من ظلّ، خلفنا، على طرف الممرّ الذي اجتزناه، كان يتعقّبنا، وخيّل لي أنّني سمعت صوت خطو مُحاذر. وفجأة -على شاكلة وميض يعبر منظراً طبيعياً ناصع البياض- خمّنت كلّ شيءٍ وفهمت أنّني قد استُدرِجتُ إلى فخّ وأنّ المتواطئين مع المومس كانوا يُقيمون المراقبة خلفنا، وهي تسوقني إلى مكان تعرف مُسبقاً أنّه مُناسب كي أغدو فيه فريسة سهلة لهم. وبوضوح فوق إنساني، شبيه بالوضوح الذي لا يطرأ إلّا خلال الثّواني القليلة الفاصلة ما بين الحياة والموت، رأيت كلّ شيء وتوقّعت كلّ الاحتمالات. كان الوقت لا يزال مُناسباً للهروب، والطّريق الكُبرى كانت قريبة جدّاً لا شكّ، لأنّني كنت أسمع الترام الكهربائي يصرُّ على القضبان، وبإمكان نداءٍ، صرخةٍ واحدة، أن تجعل النّاس

ينتبهون، فمثُلَت أمامي كلّ وسائل التخلُّص من الخطر بوضوح ودقّة مُتناهيَين.

لكنّ هذه الملاحظة المرعبة، وبفعل ظاهرة غريبة عليّ، عوض أن تُبرّد أعصابي كانت تزيدني إثارة. وأنا اليوم، بدم بارد تماماً، وفي وهج نور يوم خريفيّ جميل، لا أُفلح في أن أفسّر لنفسي بوضوح كامل عبثية سلوكي آنذاك: كنت علمت على الفور من خلال كلّ عصب من كياني أنّني أمشي دون ضرورة نحو الهلاك، لكنّ إحساسي بذلك كان يهزّ أعصابي مثل هذيان. كنت أتوقّع مشهداً مُذلّاً وربّما قاتلاً، وكنت أرتجف قرفاً من فكرة أنّني سأجد نفسي متورّطاً بهذا الشّكل أو ذاك في جريمة، في قضية مبتذلة وقذرة. لكن أمام ثمالة الحياة هذه، تحديداً، والتي لم يسبق لي قطّ معرفةُ مثيل لها أو استشعارُها، والمُنسابة في داخلي حتى لتدوّخني، كان الموت نفسه يغدو فضولاً مُهلكاً. كان أمر ما يدفعني إلى الأمام (أهو الخجل من الظّهور بمظهر الخائف أم هو الضّعف؟)، كان يُثيرني أن أنزل إلى آخر بالوعاتِ الوجود وأن أُثير الشّبهة حول ماضيّ كلّه وأن أُوسّخه في يوم واحد، فاختلطت بالبهجة الفظّة لهذه المغامرة لذّةٌ فكرية جريئة. وعلى الرّغم من أنّني كنت أشتمّ الخطر بأعصابي

كلّها، وأفهمه بعمق بفضل حواسّي وعقلي؛ على الرّغم من ذلك واصلت المضيّ نحو الأيكة مُتعلّقاً بذراع مومسِ براتر القذرة هذه والتي كان جسدها يُقزّزني أكثر ممّا يجلبني والتي كنت أدري أنّها إنّما تقودني نحو المتواطئين معها. لكنّني كنت غير قادر على العودة القهقرى. إنّ ثقل الفعل الإجراميّ الذي اقترفته ما بعد الظّهر في حلبة سباق الخيل، كان لا يزال يقودني نحو الأسفل، فلم أكن أنتظر إلّا خدَرَ وثمالةَ السّقوطِ في هاويات جديدة وربّما في آخرها جميعاً: الموت.

توقّفت المرأة بعد بضع خطوات. استرقت عيناها من جديد نظرة حائرة إلى ما حولها، ثمّ نظرت في وجهي، وكأنّها تنتظر شيئاً ما:

«حسن، ما الذي ستُقدّمه لي؟».

آه، أجل! كنت قد نسيت ذلك. لكن السّؤال لم يُربكني، بل بالعكس، كنت سعيداً أن أُعطي وأن أكون كريماً وأن يكون بمستطاعي وهب المال. بحثت بهمّة في جيبي وأفرغت في الكفّ الممدودة كلّ القطع النّقدية التي في حوزتي فضلاً عن أوراق مالية مندعكة. عندئذ وقعت ظاهرة عجيبة جدّاً لا يزال دمي إلى اليوم يلتهب من مجرّد التّفكير فيها: إمّا أن تكون قيمة المبلغ قد فاجأت هذه

البائسة التي لم تعتد الحصول إلّا على النّزر القليل مُقابل خدماتها الخسّيسة، وإما أنّه كان في الطّريقة التي قدّمت لها بها المال، بابتهاج وبسرعة وحتى بسعادة، أمرٌ لم تعتده، جديدٌ عليها، لأنّها تقهقرت فشعرتُ عبر الظّلمة الدّامسة والكثيفة أنّ نظرها يتفرّسني باندهاش شديد، فتبيّنتُ لحظتها ما كنت قد بحثت عنه طوال الأمسية: يوجد إنسان هنا يحمل همّي، شخص يُريد التعرُّف إليّ ويبحث عنّي. لأوّل مرّة كنت أوجد في اعتبار كائن من هذا الكون، فجعل هذا الكائن المنتمي إلى الفئة الأكثر مُقاساة، والذي يحمل وسط العتمة جسدَه المُستنزفَ وكأنّه بضاعة، جعلَ يضغط بجسده على جسدي، دون حتى أن ينظر إلى المشتري، ثمّ فتح عينَيه في عينَي رامياً إلى اكتشاف الكائن البشريّ الثّاوي في داخلي، فلم يفعل بذلك إلّا أن سعّر من ثمالتي المتفرّدة التي احتفظتُ في خضمّها بوضوح رؤية كامل وبتشوّش، في آن، واعياً بما يدور حولي وغاطساً في خدَرٍ سحريّ. كانت هذه المخلوقة تضغط جسدها إلى جسدي بقوّة مُتزايدة، ليس البتّة إنجازاً احترافياً لواجب مُؤَدّى عنه، بل بالعكس، كنت أعتقد أنّني أكتشف في حركتها ضرباً من الاعتراف بالجميل غير الواعي، ورغبة مؤنّثة في التّقارب. أمسكتُ

بذراعها الشّبيهة بذراع طفل هزيل معتلّ فتغلغل فيّ جسدها النّحيل ولمحتُ من خلاله وجودها كلّه: لمحت السّرير القذر في نزل بالضّاحية حيث تنام منذ الصّباح إلى منتصف النّهار، وسط ضجيج أطفال غرباء، ورأيت قوّادها يجلدها، والسّكارى المتجشّئون يرتمون عليها في الظّلمة، والقِسمَ الخاص ببائعات الهوى في المستشفى، ولمحتها موضوعَ بحث ودراسة، يُعرض جسدُها الذي أنهكه البؤس أمام أنظار الطّلبة الشّباب الوقحين، ثمّ نهايتَها في مكان ما من البلدة التي وُلدت فيها، حيث تحملها السّلطات وتتركها تنفق مثل دابّة. تولّتني شفقة بلا ضفاف عليها وعلى الآدميين. شملني أمر ما دافئ مُشكّل من الحنان وخالٍ من كلّ حسّية. كنت مستمرّاً في مُداعبة ذراعها ثمّ انحنيتُ بآلية وقبّلتها، ما أثار دهشتها.

سمعت، في اللّحظة نفسها، ضجيجاً خفيفاً خلفي. كان غصن قد انكسر، فقفزتُ إلى الوراء وسمعت صوتاً ذكورياً قوياً ومُبتذلاً يقول لي مع ضحكة هازئة: «هييه! ها ما كنتُ قد فكّرتُ فيه على الفور قد حصل!».

وقبل أن أنظر في اتّجاهه، علمت لِمَنِ الصّوت. لم أكن قد نسيت لحظة واحدة في خدري، أنّني كنت مُراقباً، وحتى فضولي الحادّ وغير القابل للتّفسير كان ينتظر هذه

اللّحظة. عندئذ خرج شبح من الأيكة متبوعاً بآخر. إنّهما صعلوكان وقحان. علت الضّحكة الفظّة من جديد: «يا لها من صفاقة أن نأتي إلى هذا المكان لارتكاب بشاعات مثل هذه! إنّه أحد علية القوم طبعاً، لكنّنا سنُعلّمه كيف يعيش!». كنت ثمّة واقفاً بلا حراك، يخفق الدّم على صُدغَي. لم أكن خائفاً، وإنّما فقط مُنتظراً ما سيأتي. كنت لحظتها في الهاوية، في العمق القصيّ للخسّة، وستأتي الآن لحظة الخلاص؛ سيأتي الانهيار والنّهاية اللّذان تركتُني أمشي إليهما بوعي غير مُكتمل.

كانت الفتاة قد ابتعدت عنّي قليلاً لكن دون أن تأخذ مكانها في الجانب الآخر. يمكن القول إنّها مكثت في مكان وسط بيننا، واتّضح أنّها لم تكن سعيدة بالكمين الذي ساهمت في نصبه. بدا الشّخصان الغريبان، من جهة ثانية، غاضبَين من مُلاحظتهما أنّني لم أكن أتحرّك. تناظرا، وتبَيّنَ أنّهما كانا ينتظران أن أحتجّ وأن أترجّاهما، وأن تصدر عنّي أمارات خوف. «آه! آه! إنّه لا يتكلّم!» صاح أحدهما في الأخير بصوت مُتوعّد، واقترب الآخرُ منّي وقال بتعالٍ: «ستتبعنا إلى المخفر».

لم أجب من جديد لأنّني لم أكن أُريد الدّفاع عن نفسي. كان ما يسمُ الوضعية من تفرّد وخسّة ومجازفة

يُذهلني. غير أنّ ذهني ظلّ صافياً، وكنت أعلم أنّ هذين الحقيرَين يخشيان الشّرطة أكثر منّي، وأنّ بإمكاني أن أستعيد حرّيتي مقابل بضع كورونات، لكنّني كنت أُريد أن أتذوّق هذا الرعب حتى نهايته. كنت أستمتع بما في المشهد من رهبة وإذلال لي، وكأنّني في حمأة إغماء واعٍ. دون تعجّل، وبآلية، سرت في الاتّجاه الذي دفعاني فيه.

ولأنّني كنت أمشي تحديداً بتلك الشّاكلة نحو النّور، دون أن أنبس بكلمة، رابط الجأش، تحيّر غريبا الأطوار هذان وراحا يتهامسان، ثمّ جعلا يتبادلان الحديث بصوت مرتفع، بنية مبيتة: «دعه يمشي لحاله»، قال أحدهما (وهو شخص ضئيل يبدو عليه آثار جدريّ)، لكن الآخر أجاب بقسوة ظاهرة: «لا، لن يحصل شيء ممّا تقول! فلو قام بهذا شخص فقير مثلنا، لا يجد ما يسدّ به رمقه، لكان قُذف به في السّجن، لكن أن يقوم بذلك سيّد... لا، عليه أن يُؤدّي الثّمن». كنت أسمع كلّ كلمة يتلفّظان بها، مُستشعراً فيها دعوةً غير ماهرة للشّروع في التّفاوض معهما. كان المجرم الكامن فيّ يفهم المجرم الثّاوي فيهما، وكنت أعلم أنّهما يُريدان تخويفي وأنّني أُبلبلهما بصلابتي. حصل بيننا صراع أخرس (أوه! يا لَثراء هذه اللّيلة!) وسط خطر محدِق بالهلاك في هذه الزّاوية من

«الباترفييز»، شارك فيه أفّاقان وبائعة هوى، فجعلني أخضع للمرّة الثّانية منذ اثنتي عشرة ساعة لسحر المقامَرَة المُشمِل، لكنّ الثمن ها هنا هو وجودي البرجوازيّ، حياتي نفسُها، فاستسلمت لهذه اللّعبة الفريدة ولهذا السّحر المدوّخ الذي اكتسته المصادفة، مُتمتّعاً بكلّ قوة أعصابي المرتعشة والمشدودة؛ المشدودة حتى الانكسار.

«آه! هو ذا شرطيّ، قال أحد الصّوتين خلفي. هذا السّيد الجميل لن يحضر حفل زفاف وإنّما سيوضع خلف القضبان أسبوعاً». كانت نبرة الصّوت تُجهد نفسها أن تبدو شرّيرة ومتوعّدة، لكنّني كنت أستشعر فيها تردّداً وافتقاراً للثّقة. مضيتُ هادئاً نحو منطقة النّور حيث كانت تبرق بالفعل قبّعة مُدبّبة لشرطي برتبة رقيب. عشرون خطوة أخرى وأجد نفسي أمامه. كان غريبا الأطوار قد كفّا عن الحديث، ولاحظت أنّهما يُبطئان من خطوهما، وسيلجان بجبن، أنا أعرف ذلك، بعد لحظة، الظّلمة، مكانهما الأثير، غاضبَين من إضاعتهما هذه الفرصةَ، وسيُفرغان غضبهما على المومس البائسة. انتهت اللّعبة، فربحت للمرّة الثّانية هذا اليوم. لقد حُلتُ دون تحقيق أشخاصٍ لا أعرفهم لرغبتهم القبيحة. راحت تلمع قدّامي دائرة الضوء الشّاحب للمصابيح. استدرت وتفرّست

الشّخصين لأوّل مرّة فلمحت في عيونهما غيرِ الواثقةِ غضباً وخجلاً مُستتراً. توقّفا حائرين خائبين، مُستعدّين للمسارعة إلى ولوج العتمة، لأنّ قوّتهما كانت قد أدركت نهايتها فصرت أنا الآن من يُخيفهما.

في تلك اللّحظة، بدا لي الأمرُ أعظمَ منّي؛ كما لو كان تخمُّرُ جسدي قد فجّر فجأة كلّ أضلعِي، وكما لو كان احتدامُ حساسيتي قد انبجس من دمي، فاستولت علي شفقة أخوية بلا ضفاف على هذين الكائنين. ما الذي ابتغاه منّي إذاً هذان الرّجلان التّافهان الجائعان الدّاعية حالهما للرّثاء؛ ما الذي كانا يُريدانه منّي، أنا الذي شبعت من كلّ شيء ولم أعد سوى عالة؟ ألم يُريدا الحصول على بضع كورونات، كورونات بائسة؟ كان بإمكانهما أن يأخذا بخناقي هناك في العتمة وأن يسلباني ما أملك وأن يقتلاني، لكنّهما لم يفعلا واكتفيا بمحاولةٍ لا خبرة فيها ولا مهارة لإخافتي كي أُسلّمهما بعضاً من المال الذي في حوزتي. كيف يُمكنني أنا الذي سرقت بفعلِ نزوةٍ ووقاحة، أنا الذي ارتكبت جريمة كي أُريح أعصابي، كيف يُمكنني أن أُنغّص على هذين الشّبحين المسكينين؟ ثمّ انضاف إلى شفقتي خجل شديد من أن أكون قد لعبت على تعجّلهما وعلى قلقهما كي أحقّق

لنفسي متعة ضئيلة. جمّعت طاقتي، فوجب علي، وقد صرت الآن في مأمن، يحميني النّورُ، أن أؤتي فعلاً خيّراً لأضع حدّاً لخيبتهما التي كانت تُقرأ في نظرتيهما المريرتين والجائعتين.

التفتُّ فجأة واقتربت من أحدهما. «لماذا تُريدان التّبليغ عنّي؟» قلت جاهداً في صبغ صوتي بنبرةِ مَن يحبِس خوفُه تنفّسَه. «ما الذي ستربحانه من ذلك؟ من الممكن إرسالي إلى السّجن، بيد أنّ هذا غير مُؤكّد. ثمّ فيمَ سيُفيدكما سَجني؟ لماذا تُريدان تحطيم حياتي؟».

بدرت منهما نظرة مُنزعجة. هما كانا ينتظران صرخة استغاثة أو تهديداً من شأنه أن يجعلهما يفرّان مُدمدمين مثل كلبَين؛ كانا ينتظران أيّ شيء إلّا هذه الدّعوة إلى التّسوية، فصرّح أحدهما في الأخير، لا بنبرٍ متوعّد وإنّما كأنّه يعتذر: «لا بدَّ من العدالة. نحن لا نقوم إلّا بواجبنا».

كانت تلك، على ما يبدو، صيغةً محفوظة سلفاً لتُقال في حالات مثل هذه. لكنّ نبرها بدا مع ذلك مهزوزاً. لم يجرؤ أيّ من الرّجلين على رفع بصره إليّ. طفِقا مُنتظرين، وكنت على بيّنة ممّا ينتظران؛ أن ألتمس غُفرانهما وأن أنفحَهُما بعض المال.

أنا لا أزال أتذكّر هذه اللّحظات الوجيزة بدقّة، وأتذكّر اصطخاب كلّ عصب في جسدي وكلّ فكرة اهتزّت خلف صُدغي. أنا أعرف ما الذي كان قد ابتغاه شَرِّي أوّل ما ابتغى: أن أجعلهما ينتظران وأن أُمدِّد زمنَ اضطرابهما وأن أستمتع بلذّةِ الانتظارِ المفروض عليهما. لكنّني سُرعان ما تخلّيت عن رغبتي وشرعت أتوسّل، لأنّه كان علي في الأخير أن أُخلّص هذين الكائنين من قلقهما. جعلت أُمثّل مسرحية الخوف مُلتمساً شفقتهما وسألتهما عدم التّبليغ عنّي وأن لا يكونا سبباً في شقائي. لاحظت كم كان هذان المبتزّان الهاويان المسكينان منزعجَين، وكم كان الجوّ المحيط بنا قد بدأ يتلطّف.

لحظتها تلفّظت أخيراً، أخيراً بالكلمات التي سعيا وراءها طويلاً: «أُسَ... أُسلّمكما... مئة كورونا».

بدَرَت عنهم ثلاثتهم انتفاضة وجعلوا يتناظرون، فهم ما كانوا يتوقّعون شيئاً مثل هذا، ما دام كلّ شيء كان قد ضاع منهم. ثمّ تماسك أحدهما، الهزيل ذو النّظرة القلقة، فحاول الكلام مرّتين لكن الكلمات خانته، رافضةً مغادرة حنجرته، ثمّ قال في الأخير، مع ما كنت أستشعره من انزعاج يُقاسيه: «مئتا كورونا».

«لكن، ضعَا حدّاً لهذا»، قالت المرأة مُتدخّلة فجأة،

«عليكما أن تسعدا بأن قبل تسليمكما هذا المبلغ. هو لم يقترف شيئاً على الإطلاق، وما كاد يلمسني. لقد تجاوزتما حدّكما!».

صاحت في وجههما بذلك بغضب حقيقيّ، فعلا وجيبُ قلبي. إنّ شخصاً ما يُشفق عليّ ويتدخّل لصالحي. لقد انبثقت الطّيبةُ من الضّعة وانبجست رغبةٌ في العدل من الابتزاز. كم أسعدني ذلك! وكم كان مُتناغماً مع تمدّد كياني! لا، ليس لي الحقّ في الاستمرار لمدّة أطول في اللّعب مع هؤلاء الأشخاص وفي مواصلة بلبلتهم وإقلاقهم والاستمتاع بضيقهم. هذا يكفي.

«حسنٌ، مثتا كورونا إذاً».

صمتوا ثلاثتهم. أخرجتُ حافظة نقودي. بسطتها مُطولاً عارضاً ما فيها في كفّي. كان بإمكانهم انتشالها منّي بحركة واحدة والفرار إلى العتمة. لكنّهم لم يجرؤوا حتى على النّظر إليها. كان يقوم بيني وبينهم ما يُشبه اتّفاقاً سرّياً. لم يعد بيننا صراع ولا لعب، وإنّما وضعية قانونية قوامها الثقة وتحكمها العلاقة الإنسانية. أمسكت بالورقتَين النّقديتَين من المظروف المسروق وسلّمتهما لأحد الرّجلين.

«شكراً جزيلاً»، قال دون أن تكون له رغبة في ذلك،

وانثنى على الفور. كان هو نفسه يشعر بالطّابع المثير للسّخرية لأن يُقدّم شكراً على مال حصّله بالاحتيال. كان يشعر بالخجل (أوه! لقد كنت ليلتئذ أستشعر أدنى شيء وأتغلغل في دلالة أيّ حركة) فأشعرني خجله بالتّوتّر. لم أكن أرغب في أن يشعر الرجل بالخجل أمامي، أنا الذي كنت شِبهَهُ، لصّاً مثله وضعيفاً وجباناً وبلا إرادة مثله. بلبلني ذُلُّه وأردت جعله يكفّ عن ذلك، فأوقفته.

«أنا من يجب أن يشكركم»، قلتُ مُندهشاً من النّبر الودّي الجدّي الذي انعكس في صوتي. «فلو كنتم أبلغتم عنّي لكانت نهايتي. لكنت أطلقت رصاصة على رأسي، ولما كان ذلك أفادكما في شيء. الحال أحسن هكذا. سأذهب أنا الآن في هذا الاتّجاه، يميناً، بينما ستذهبون أنتم من الجهة الأخرى، أليس كذلك؟ طابت ليلتكم».

ظلّوا من جديد خُرساً لحظات، ثمّ قال لي أحدُ الرّجلين: «طابت ليلتك»، وفعل الآخر مثله، ثم المومس التي كانت بقيت مغمورة كلّية بالظّلمة. كان في صوتهم نبر دافئ وودّي كأنّهم يتمنّون لي صادقين ليلة طيّبة. خمّنت أنّهم كانوا، في مكان ما من عمق كيانهم المظلم، يُحبّونني حقّاً وأنّهم لن ينسوا هذه اللّحظة الفريدة. سواء في المستشفى أو في السّجن، سيتذكّرون هذا، لا شكّ،

فقد جعل شيء ما منّي يحيا فيهم الآن وقد نفحتهم هذا المال، فملأت سعادةُ هذه الهِبة كياني كما لم يفعل أيّ إحساس آخر قطّ من قبل.

انتهجت وحدي وسط اللّيل الممرَّ المُؤدّي إلى باب البراتر. كنت قد تخلّصت من كلّ توتّر، فشعرت أنّني أميل على اللاّنهائيّ الكونيّ بامتلاء لم يسبق لي الشّعور به، أنا الذي كنت حتى تلك اللّحظة كأنّني غائب. بدا لي أنّ كلّ شيء إنّما يحيا من أجلي أنا وأنّني حَالٌّ في كلّ شيء؛ تلفّني الأشجار بظلالها السّوداء وتتوجّه لي أنا بوشوشاتها فأحببتها. وتلمع النّجوم هناك فوق، فأستنشق تحيتها الفضّية. وتُقبل أصوات مُنشدة لا أدري من أين فأشعر أنّني أنا المقصود بنشيدها. كلّ شيء هو ملك لي الآن، منذ أن كسرت اللّحاء الذي كان يلفّ صدري، فجعلتني سعادتي ببذلي من نفسي وبأن أكون سخياً أُولِي اهتمامي لكلّ شيء. أوه! ما أسهل -كنت أستشعر ذلك- إشاعةُ الفرحة والفرحُ بإشاعتها! ليس لنا إلّا أن نفتح كياننا فتتدفّق أمواج الحياة وتنتشر بين النّاس مُسارعة من القمم إلى الأعماق كي تنبثق بعد ذلك في اللانهائي.

* * *

عند مخرج البراتر، بجانب موقف للعربات، لمحت

بائعة مُتعبة مائلة على معروضاتها. كانت تبيع فواكهَ وحلويات غشاها الغبار. هي هنا دون شكّ منذ الصّباح، مُنثنية على قطعها النّقدية القليلة وقد فطرها النّصبُ جزأين. لماذا لا تفرحين أنتِ أيضاً، فكّرتُ، ما دمتُ أنا فرحان؟ أمسكت بقطعة خبز بالسكّر ووضعت أمامها ورقة نقدية. سارعت إلى تسليمي ما يبقى منها، لكنّني كنت قد انصرفت مكتفياً برؤية الدّهشة السّعيدة التي أبدتها، فاستقامت هيأتها التي كانت مُنكمشة على نفسها، وحاول فمُها المجمّد من المفاجأة أن يُباركني ألف مرّة. اقتربت، حاملاً قطعة الخبز بين أصابعي، من فرس مُتعب مُستند إلى عربة، فأدار رأسه جهتي، مُطلقاً أنفاسه بودّ نحوي. رأيت في نظرته المُتعبة أنّه يشكرني هو أيضاً أن داعبت منخرَيه الورديَّين وأن مددت له قطعة الخبز المسكّرة. وما أن أنهيت ذلك حتى حدتني رغبة في القيام بالمزيد. كنت أرغب في أن أنشر المزيد من الفرح، شاعراً بوضوح كيف يمكننا ببضع قطع نقدية، وبقليل من القطع الورقية الملونة، أن نُهمد القلق ونضع حدّاً للهمّ ونُؤجّج البهجة. لماذا لا يوجد ها هنا مُتسوّلون؟ لماذا لا أرى الأطفال الرّاغبين في هذه البالونات المربوطة إلى حبال، في هذه الحزمة الضّخمة التي كان عائداً بها إلى بيته بائعٌ، رجل أعرج ذو شعر

أبيض، خائباً من عدم رواج بضاعته خلال هذا اليوم الطّويل الحارق؟ اقتربت منه «سلّمني بالوناتك». «فلسان للقطعة الواحدة»، قال بحذر، مُتسائلاً لا شكّ ما يُريد فعلُهُ رجل متأنّق لا شغل له، بهذه البالونات في منتصف اللّيل. «أشتريها كلّها»، قلت وأنا أُسلّمه ورقة عشر كورونات. صدرت عنه حركةُ مُفاجأةٍ ونظر إلي مُنذهلاً ثمّ سلّمني بكفّ مرتعشة الحبل الذي يشدّ رزمة البالونات. شعرت بجذب في إصبعي: هؤلاء المساجين يُريدون الانصراف وأن يكونوا أحراراً مُنطلقين في الفضاء! لتكونوا أحراراً! أطلقت الحبل فحلّقت البالونات فجأة وكأنّها أقمار مُتعدّدة الألوان مُختلفتها. أبطأ النّاس خطوهم في مختلف الاتّجاهات ثمّ اقتربوا ضاحكين، وخرج العشّاق من العتمات وفرقع الحوذيون سياطهم مُتنادين ومُشيرين بأصابعهم إلى البالونات المتحرّرة وهي تتجاوز قمم الأشجار مُتّجهة نحو أسطح المنازل. كان النّاس جميعاً يتناظرون مُبتهجين ومُتسلّين بفعلي اللّطيفِ في حمقه.

لماذا لم أعرف قطّ من قبل كم هو سهل وجيّد أن نُقدّم خدمة للنّاس؟ فجأة جعلت الأوراق النّقدية التي تضمّها حافظة نقودي تُحرقني وتجذبني كما كان فعل حبل البالونات. الأوراق النّقدية بدورها كانت تُريد التّحليق

بعيداً عنّي نحو المجهول. أمسكت بها في يدي؛ أمسكت بالنقود التي اختلستها من لاجوس وبتلك التي كانت قبل ذلك في حوزتي (لأنّني لم أكن أرى أي فرق بينها، ولم يكن يُساورني أيّ شعور بالذّنب)، مُستعدّاً لتوزيعها على كلّ من يُريد أخذها. تقدّمت نحو مُنظّف يكنس بلا مُبالاة «البراتيرتيراس» الخالي. ظنَّ أنّني أرغب في معرفة اسم شارع ما، فنظر إليّ بمزاج معتكر. ابتسمت له مادّاً في اتّجاهه ورقة من فئة عشرين كورونا، فتفرّسني غير فاهمٍ قصدي، ثمّ أمسك أخيراً بالورقة، مُنتظراً ما سأطلبه منه. لكنّني قلت له، دون أن تُفارق بسمتي شفتيّ: «ستشرب كأساً على حسابي»، وانصرفت. نظرت في كلّ الاتّجاهات باحثاً عمّا إن كان شخص ما يرغب في شيء أُسلّمه له، وبما أنّني لم أرَ أحداً تقدّمت. سلّمت ورقة نقدية لمومس بادرتني بالحديث، وسلّمت ورقتين لمُوقد المصابيح، وألقيت بأخرى من شبّاك مخبزة واستمررت هكذا في المشي تاركاً خلفي مَخراً من الدّهشة والاعتراف بالجميل والفرح. ثمّ شرعت في الأخير في القذف بها مدعوكة في فراغات الطّريق وعلى مدارج كنيسة، مُبتهجاً بفكرة عثور العجوز الطّيبة المنكمشة على نفسها، وهي في طريقها إلى أداء صلاتها الصّباحية، على المئة كورونا

فتشكر الرّب؛ وسعيداً بفكرة اكتشاف الطّالب الفقير أو الفتاة أو العامل، في الطّريق، لهذا المال فتغمرهم المفاجأة والسّعادة أيضاً، تماماً كما كنت أنا هذه اللّيلة قد اكتشفتُني فغمرتني المفاجأة والسّعادة.

يستحيل عليّ اليوم أن أقول كيف بذَرتُها كلّها، تلك الأوراق المالية، مع ما كان في حوزتي منها أيضاً، كي أضع حدّاً للمسألة. كنت أشعر بما يُشبه الدّوار وبضربٍ من دَفقِ لذّةٍ كالتي نجنيها من ضمّ امرأة بين ذراعينا، وعندما حلّقت آخر الأوراق النّقدية شعرت بنفسي خفيفاً كما لو كان لي جناحان، وأكثرَ حرّية من أيّ وقت مضى. الشّارع والمنازل والسّماء، كلّ ذلك كان يمتزج في عينَي مشمولاً بشعورٍ مُترعٍ حميميةً وامتلاكاً جديدٍ عليّ بالكلّية. لم يسبق لي قطّ، حتى في اللّحظات الأكثر اضطراماً من حياتي، أن ساورني انطباع، بهذه القوة كلّها، أن كلّ هذه الأشياء موجودة حقّاً، وأنّها تحيا وأنّني أنا أيضاً أحيا، وأنّ حياتها وحياتي مُتشابهتان، حتى لو كانت حياةً عظيمة سامقة لا نشعر فيها أبداً بما يكفي من سعادة، يُدركها القلب وحده، ولا يكون قادراً على عناقها إلّا من يبذل من نفسه.

ثمّ طرأت بعد ذلك لحظةُ رهبةٍ أخيرة. حصل ذلك

عندما عدت إلى مسكني مبتهجاً وأدخلت المفتاح في قفل الباب فانفتح أمامي الممرُّ الذي يقود إلى شقّتي غاطساً في ظلام دامس. اجتاحتني لحظتئذ الخشية من أن أعود إلى وجودي السّابق إذْ ألج مسكن الشّخص الذي كنته حتى هذه اللّحظة، فأنام في سريره وأُعيد الاتّصال بكلّ ما أجادت هذه اللّيلة في إبادته. كلا، كلّ شيء إلّا أن أصير من جديد رجل الأمس، أن أغدو ثانية النبيل الممتثل والجامد والمنعزل عن العالم الذي كنته البارحة؛ الذي كنته فيما مضى! أحسن لي من ذلك أن أُسارع إلى كلّ هاويات الإجرام والرّعب التي ينتمي أصحابها، على الأقلّ، إلى حقيقة هذا الوجود! كنت مُتعباً، مُتعباً جدّاً، وكنت مع ذلك أخشى أن يغلبني النّوم لاقّاً في طميه الأسود كلّ هذا الاحتدام وهذا الشّغف وهذه الحياة التي أوقدها اللّيل فيّ، فلا تترك هذه التّجربة من أثرٍ أكثر من حلمٍ مذهل.

لكنّني استيقظت صباح اليوم التّالي خفيفاً على غير عادتي، في صباح جديد علي، ولم يكن قد نضب شيء من مشاعر امتناني المتأجّجة.

* * *

انصرمت أربعة أشهر بعد ذلك ولم تُعاودني حالة

جمودي، وكنت أشعر أثناء مرور السّاعات برغبة دافئة في الإقبال على الحياة. والحقّ أنّ هذه الثّمالة السّحرية التي كنت قد استشعرتها (خلال تلك اللّيلة المذهلة) لمّا لم تعد ساقاي تجدان أسفلَهُما عالمي المألوف، ولمّا كنت سارعتُ إلى المجهول، وعندما كنت أتدحرج في هاويتي الخاصّة مُستلذّاً بمتعةٍ دوارَ الثّمالة المصحوب بالنّفاذ إلى عمق الحياة؛ الحقّ أنّ هذا الاحتدام وتلك الاندفاعات لم تعد موجودة الآن، لكنّني بقيت أشعر منذئذ في كلّ نفَسٍ من أنفاسي بدفء دمي، مع استلذاذ للحياة لا يفتأ يتجدّد كلّ يوم. أنا أعلم أنّني صرت رجلاً آخر، بحواسّ أخرى ومشاعر جديدة ووعي أكثر حدّة. لا يُمكنني طبعاً أنّ أدّعي أنّني قد صرت أحسن ممّا كنت. أنا أعلم فقط أنّني أكثر سعادة لأنّني قد وهبت، بشكل من الأشكال، معنى لحياتي التي كانت من قبل باردة وهامدة؛ معنى لا يُمكنني أن أنعته بشيء آخر أكثر من كلمة «حياة» نفسها. منذئذ ما عُدت أحظر على نفسي شيئاً، لأنّني جعلت أعتبر أنّه لا طائل من وراء المعايير والقوالب التي يضعها المجتمع، فما عُدت أخجل لا أمام الآخرين ولا أمام نفسي. اكتست فجأة كلماتٌ من مثل «الشّرف» و«الجريمة» و«الرّذيلة»، رنيناً هو أفقر من رنين الحديد الأبيض، فما عدت أقدر

على التّلفّظ بها دون شعور بالرّعب. أخذت أعيش تاركاً قيادَ حياتي لقوة جعلت أشعر بها لأوّل مرّة، فلم أعد أتساءل إلى أين تقودني؛ قد تُفضي بي ربّما إلى هاوية جديدة، إلى ما كان الآخرون يُسمّونه الرّذيلة، أو ربّما إلى أمر ما شديد السمو. أنا أجهل ذلك ولا رغبة لي في معرفته، لأنّني أعتقد أنّ الوحيد الذي يحيا حياته حقّاً هو الذي يعيش قَدَره بوصفه لغزاً.

بيد أنّني لم يسبق لي أن عشت حياتي بهذا الشّغف كلّه -أنا متأكّد من ذلك- وأنا على علم الآن أن كلّ إنسان يكون بصدد ارتكاب جريمة (هل هي الوحيدة!) عندما يبقى غير مهتمّ أمام كل ما يقتحم حياته من أشكال وتجسّدات. منذ أن بدأت أفهم نفسي فهمت أيضاً ما لا يُعدّ ولا يُحصى من الأمور: يمكن لنظرة كائن ما مليئة بالرّغبة أمام معروضات أن تُبلبلني، ولقفزة كلب أن تُحمّسني. منذئذ بدأت أُعير الاهتمام لكلّ شيء، وما عدت أبقى غير مبالٍ أمام شيء. قرأت في الصّحيفة (التي لم أكن أقرأها فيما مضى إلّا بحثاً عن تسلية أو عن بيع بالمزاد العلني) ألفَ حدث ممّا يطرأ يومياً فتحرّكت أحاسيسي؛ وقرأت كتباً كانت من قبل تُضجرني فبدت لي فجأة ذات أهمّية. وأهمّ ما في المسألة أنّني صرت أقدر

على الكلام مع النّاس، حتى خارج ما يُسمّى بالمحادثة. وبدأ خادمي الذي شغّلته منذ سبع سنوات يحظى باهتمامي، فجعلت أُحادثه باستمرار، وحارس العمارة الذي كنت من قبل أمرّ أمامه كما أمام سارية مُتحرّكة حكى لي مؤخّراً عن وفاة ابنته فتأثّرت بذلك كتأثّري من قراءة مآسي شكسبير. بدأت آثار هذا التّحوّل تظهر شيئاً فشيئاً (رغم أنّني، كي لا أخدع نفسي، واصلت خارجياً ارتياد الأماكن التي يسود فيها الضّجر الصّارخ). أضحى عدد من الأشخاص فجأة ودودين تجاهي، وللمرّة الثّالثة هذا الأسبوع أقبلت كلاب نحوي في الشّارع، وقال لي أصدقاء بضرب من الابتهاج، وكأنّهم يُحادثون شخصاً تعافى من مرض، إنّهم يرون أنّني قد أصبحت أكثر شباباً.

أكثر شباباً؟ أنا وحدي أعرف في الحقيقة أنّني الآن فقط بدأت أعيش. لا شكّ أنّ هذا وهمٌ عامّ، لأنّ كلّ شخص يفكّر في أنّ كلّ ما مضى لم يكن باستمرار إلّا خطأ أو استعداداً بسيطاً للمستقبل، ففهمت جيداً الاعتزاز بالنّفس الذي يدفعني إلى أن آخذ في كفّي الدّافئة والحية ريشة باردة كي أخطّ على الورق الجافّ أنّنا نحيا حقّاً. بيد أنّ هذا أيضاً وهمٌ، وهي المرّة الأولى التي يُسعدني فيها ذلك؛ الأولى التي أدفأت دمي وخاطبت حساسيتي.

وإن كنت أخطّ ها هنا معجزةَ يقظتي وعودتي إلى الحياة، فإنّني لا أقوم بذلك إلّا لنفسي، أنا الذي أعي هذا بعمق تعجز كلماتي عن قوله لي. لم أتحدّث بهذا لأيّ صديق، وأصدقائي بدورهم لم يعرفوا قطّ أنّني كنت من قبل فريسة لعدم الإحساس، ولن يعرفوا أبداً أيّ تفتّح ستعرفُه حياتي من الآن فصاعداً. وإن كان من المفروض أن يَعبُرَ الموتُ فجأة حياتي المتأجّجة، وإن وقعت هذه السّطور بين يدي شخص آخر، فإنّ هذا الاحتمال لا يُرعبني ولا يُبلبلني. إنّ الذي لم يسبق له أن وعى سحر مثل هذه السّاعة (التي عشتها في تلك اللّيلة) لن يكاد يفهم، كما لم أكد أفهم أنا نفسي كيف يكون بإمكان وقائع طرأت منذ بضعة أشهر لا تجمع بينها في الظّاهر أيّ علاقة، أن توقد بطريقة سحرية وفي ليلة واحدة قَدَراً يمكن القول إنّه كان قد انطفأ. وأنا، أمام شخص مثل هذا، لن أشعر بأيّ قدر من الخجل، فهو لن يفهمني. لكنّ من يعي ما يقوم بين الأشياء من ترابط يتحرّز في إصدار الأحكام ولا يُبدي عجرفته، وأمامه أيضاً، لن أشعر بالخجل أبداً، فهو يفهمني. إنّ شخصاً يعثر على نفسه بنفسه، لا يُمكن أن يكون له شيء يفقده في هذا العالم. وما أن يفهم شخصٌ الكائنَ البشريّ الثّاوي فيه، سيفهم كلّ البشر.

حكاية شفقية

يا لَكَم تعتّمت غُرفتنا فجأة! فهل تكون الرّيحُ قد أعادت المطرَ إلى المدينة؟ كلا، الجوّ هادئ مُتهلّل بنور فضّي، وهو ما لا يحصل إلّا نادراً في هذه الأيام الصّيفية. لقد أصبح الوقتُ متأخّراً في غفلة منّا. وحدها كُوّاتُ السّطوح المقابلة لا تزال تتبسّم بإشراقة ضعيفة، وقد تغشّت السّماء فوق قمم الجبال بغمام مُذهّب. بعد ساعة سيُرخي اللّيل أستاره. إنّها لَلَحظة رائعة، لأنّه ليس أروعَ من رؤية هذا اللّون وهو يتغمّم ويسودّ شيئاً فشيئاً. اجتاحت العتمةُ الصّاعدة من الأرض الغرفةَ، إلى أن حلّت لحظة اتّصال هذه الأمواج السّوداء بعضها ببعض دون ضجيج فوق الأسوار فغمرتنا بعتمتها. في لحظات مثل هذه، وعندما نكون جالسين متقابلين ننظر إلى بعضنا البعض دون حديث، يتهيّأ لنا أن الوجه الأليف الجالس أمامنا والمكسو بالظّلال قد شاخ وغدا غريباً ونائياً. يبدو

لنا كأنّنا ننظر إلى بعضنا عن بُعد، تفصل بيننا سنوات عديدة. لكنّك تشتهي الآن أن نتجاذب أطراف الحديث لأنّ قلبك، تقول، ينقبض وأنت تستمع إلى رقّاص السّاعة يفتّ الزّمن إلى ألف قطعة صغيرة، ولأنّ تنفّسنا يغدو وسط الظّلام ضاجّاً كأنّه تنفّس المريض. أتُريد أن أحكي لك شيئاً؟ تقول إنّك ترغب في ذلك. حسن. لن أُحدّثك بالتّأكيد عن نفسي لأنّ حيواتنا في مثل هذه المدينة المترامية الأطراف فقيرة في مغامراتها أو على الأقلّ يبدو لنا الأمر كذلك، لأنّنا لسنا بعدُ على علم بما في حوزتنا، خاصٌّ بنا. غير أنّني سأقصّ عليك حكاية تُناسب اللّحظة الرّاهنة؛ هذه اللّحظة التي لا يُناسبها، لنكن صرحاء، إلّا الصمت. كما أنّني أريد أن يكون لها قليلٌ من هذا الضوء الشفقي الدافئ والرقيق، المنساب وهو يتمطّى كالحجاب فوق نوافذنا.

لا أعرف كيف أبدأها. كنت في بداية فترة ما بعد الزّوال قد بقيت مدّة طويلة جالساً في هذه الغرفة. كنت أقرأ كتاباً ثم أهملته مُستغرقاً في أحلام يقظة، وربّما حتى في غفوة خفيفة. فجأة مرقت أمامي شخصيات. كانت تنزلق على طول الجدار، فسمعت كلامها وولجتُ حياتها. غير أنّني عندما أردت مُتابعة هذه الأخيلة الهاربة

ببصري، استيقظت ووجدتني وحيداً. كان الكتاب بجانب قدمي فحملته كي أسأله عن هذه الشّخصيات، لكنّني لم أعثر به على حكايتهم. هل كانت ماثلة فيه من قبل؟ إن كان الأمر كذلك فقد سقطَت إذاً من بين الأوراق وحتى من بين يديّ. أفلا أكون بالأحرى قد حلمت بها؟ خَلَا أن أكون قد قرأتها على إحدى هذه الغيمات المتنوعة القادمة من بلدان بعيدة، وقد عبرت هذا اليوم سماء مدينتنا فطردت المطر الذي طالما أزعجنا. أم أنّ أحدهم ربّما قد يكون حكاها لي قديماً؟ أنا لا أعرف. فغالباً ما تُحكى لي هذه الحكايات فأتسلّى بتركها تمرّ من بين أصابعي دون أن أمسك بها، وكأنّني أُلامس السّنابل أو الورود، أثناء المرور، وهي قائمة على سيقانها دون أن أقطفها، فلا تظهر لي إلّا في الحلم في شكل صور مفاجئة ملوّنة تنتهي بالتّلاشي فأدعها تهرب. أنت تُطالبني إذاً بحكاية! سأحكي لك واحدة في هذه اللّحظة التي يجعلنا الشّفق فيها نهفو إلى شيء برّاق ومتعدّد الألوان وهو يصطخب أمام أعيننا التي كساها اللّون الرمادي بمسحة من الحزن.

كيف أبدأ؟ عليّ -أنا أشعر بذلك- أن أُخرج في لحظةٍ من الظلّ لوحةً وطيفاً، لأنّ هذه الأحلام الغريبة

تبدأ بالولادة في ذهني بهذه الطّريقة. ها أنذا أتذكّر. أرى مُراهقاً رشيقاً ينزل الدّرجات الواسعة لسلَّم أحد القصور. الوقت ليلٌ. ليل يُنيره فقط ضوء القمر الباهت. لكنّني أتبيّن، كما لو بمُساعدة عاكسِ ضوء، كلّ أنحاء جسده المرن وأميّز قسماته بوضوح. جماله نادر. شعره الأسود المحلوق بحسب الموضة الطّفولية ينسدل مُستقيماً على جبهته التي قد تكون ربّما واسعة جدّاً. كفّاه اللّتان يمدّهما إلى الأمام في العتمة كي يتلمّس الهواء الموسوم بعدُ بدفء الشّمس رقيقتان أرستقراطيتان. خطوه مُتردّد. نزل حالماً إلى الحديقة العامرة بارتعاشات الأشجار الضّخمة المستديرة، يلمع عبرها ممرّ واحد واسع أبيض، فيبدو كأنّه جسر.

أجهل تاريخ هذه الأحداث وما إن كانت قد وقعت بالأمس أو منذ خمسين سنة. كما لا أعرف أين وقعت، وإن كنت أعتقد أنّ ذلك قد حصل في إنجلترا أو اسكتلندا. ذلك أنّني في هذين البلدين فقط أعرف بوجود هذه القصور العالية الواسعة والمشيّدة بصخور ضخمة، فتبدو من بعيد كأنّها تتّصف بما تتّصف به القلاع من غطرسة ومهابة فتحتاج العين أن تألفها قبل أن تراها تميل بلطف على حدائقها المتبسّمة المورّدة. أجل، أنا متأكّد

الآن. حصلت هناك فوق، في اسكتلندا. فليس إلّا في هذا البلد تكون ليالي الصّيف وضّاحة ويكون لون السّماء كلون الحجر الكريم المشرق الحليبيّ، ولا تكون الأرياف فيها أبداً مُعتّمة، وحيث يبدو كلّ شيء مُناراً من الدّاخل، وتكون الظّلال وحدها، الشّبيهة بطيور سوداء عملاقة، هي التي تحطّ على بُسُطِ النّور هذه. لقد حصل ذلك في اسكتلندا، أنا الآن على يقين تامّ بذلك، ولو كلّفت نفسي بعض العناء لعثرت على اسم هذا القصر الذي يبدو كأنّه في ملكية كونت، بل حتى على اسمِ قصرِ هذا الفتى، ذلك أنّ اللِّحَاءَ الدّاكن الذي يُحيط بحلمي يتحلّل بسرعة فأميّز الأشياء بوضوح كامل وكأنّ الأمر لا يرتبط بذكرى عائمة وإنّما بحدث كنت شاهداً عليه. كان هذا الفتى قد حلّ في فصل الصّيف ضيفاً على أخته وزوجها، وكما تقتضي العادة اللّطيفة للعائلات الإنجليزية الكبيرة، فإنّه لم يكن الضّيفَ الوحيد. تجمّع حول وجبة العشاء فرقة كاملة من القنّاصين برفقة زوجاتهم وبعض البنات. أيقظَت صدى الجدران القديمة ضحكاتٌ بهيجة وغير ضاجة مع ذلك، تصدر عن شبّان فارعي الطّول وسيمي الوجوه. لقد خبّت الجياد، خلال النّهار، في كلّ الاتّجاهات محفوفة بالكلاب، وقبالتهم، على الوادي، كان يلمع مركبان أو

ثلاثة. لقد نعموا بأنشطة مُسلية طبعت النّهار بإيقاع رائع في خفّته.

حلّ المساء الآن، فغادر المدعوون المائدة. استقرّ الرّجال في قاعة الاستقبال يُدخّنون ويلعبون الورق. ستُلقي النّوافذ على الحديقة المخروطية الشّكل وإلى حدود منتصف اللّيل أضواء بيضاء، مُترنّحة قليلاً، وستخرج منها أحياناً ضحكات عالية مبتهجة. كانت غالبية النّساء قد التحقن سلفاً بغرفهنّ، ما خلا اثنتين أو ثلاثاً ربّما كنّ لا يزلن يُثرثرن في الرّواق. وكان الفتى وحيداً لأنّه لا حقّ له الآن في مُخالطة الرّجال، أو لا يحقّ له ذلك إلّا لحظات، ويشعر ببعض الامتعاض من مُصاحبة النّساء لأنّهن غالباً ما يُخفتن من أصواتهنّ ما أن يفتح باباً فيشعر أنهنّ يتحدّثن في أمور لا يجوز له سماعها. وهو أيضاً لا يُحبّ تجمّعاتهنّ لأنهنّ يشرعن يُمطرنه بأسئلة كأنّه طفل ولا يستمعن إليه إلّا بآذان غير مُكترثة، ويستغللنه تحديداً ليقوم من أجلهنّ بخدمات صغيرة فيشكرنه عقب ذلك وكأنّه طفل نجيب. لذلك رغب في الذّهاب للنّوم، وها هو ذا سلفاً أعلى مُنعطف السلّم. لكنّ الحرّ كان شديداً في غرفته السابحة في جوّ ثقيل لا يُحتمل. لقد نسوا إغلاق النّوافذ نهاراً فعمرتها الشّمس وأدفأت المائدة

والسّرير وتركّزت في الجدران فكان نفَسها الحارق تنضح به ستائر الغرفة وزواياها. كما أنّ الوقت كان أبكر من أن ينام، واللّيل في الخارج لذيذ بهدوئه وسكينته ولطفه وبياضه الذي كأنّه بياض الشّمع. نزل المراهق إذاً السلّم الواسع للقصر وسار في اتّجاه الحديقة، الكتلة الدّاكنة المستديرة التي تنشر السّماءُ فوقها نورها الشّفاف، كأنّه المجد، وإلى حيث يجلبه الشّذى الثّقيل المنبعث من ألف وردة غير مرئية. كان فريسة مشاعر غريبة، غيرَ قادر، في التباس مشاعر سنواته الخمس عشرة، على تفسير بلباله، لكنّ شفتيه كانتا ترتعشان وكأنّهما تودّان التّلفّظ ببضع كلمات وسط اللّيل أو كأنّه يُريد رفع يديه أو أن يُغمض عينيه مُطوّلاً. بدا كأنّ علاقة حميمة ومُلغزة قد نشأت بين هذه اللّيلة الصّيفية المهدّئة وبينه، فجعلت تُطالب من جانبها بكلمة أو بإشارةِ صداقة منه.

غادر الفتى ببطء الممرّ الرّئيس الواسع والفارغ وولج أحد الممرّات الصّغيرة حيث تبدو الأشجار وكأنّ قممها المرصّعة باللّون الفضّي مُتداخلة، بينما كانت العتمة تمتدّ فوقها ثقيلة. كان كلّ شيء سادراً في صمته. لم يتبيّن المتجوّل وقد اجتاحه شجن رقيق مشوّش إلّا هذا الضّجيجَ الغامض لصمت الحديقة، هذا الطّنينَ المهتزّ الذي يجعلك

تعتقد أنّه حفيف مطر خفيف ينثال على العشب أو هسيسٌ حادّ لأعشاب تحتكّ فيما بينها. كان أحياناً يلامس شجرة أو يتوقّف كي يستمع إلى هذا الضّجيج المنفلت. ضغطت ببريتُه جبهتَه فخلعها كي يشعر على صُدغيه العاريين، حيث يخفق دمه، بالملامسة الفاترة للنّسيم.

فجأة، وعندما ازداد غوصاً في العتمة، حدث له أمر غريب. أصدى الحصى خلفه بخفوت، وبما أنّه التفت مرعوباً، فقد لمح شكلاً أبيض كبيراً يتقدّم نحوه كأنّه نار متأجّجة، وسرعان ما ارتمى عليه وسقط فوقه، فشعر مذعوراً بامرأة تضغطه إليها في ضمّة حارقة، لكنّها بعيدة مع ذلك عن أن تكون عنيفة. احتك جسد رطب ودافئ باضطرام بجسده، وربّتت كفّ شعره بحركة خفيفة مرتعشة ودفعت برأسه إلى الوراء. استسلم وهو يشعر على فمه بفاكهةٍ نصف مفتوحة لا يعرف طعمها؛ بشفتين مُرتعشتين تشربان شفتيه. كان هذا المحيّا من الالتصاق بوجهه إلى حدّ أنّه لم يستطع تمييز قسماته، كما أنّه لم يقوَ على القيام بذلك لأنّ رعشة مؤلمة رجّته وأرغمته على إغماض عينَيه فاستسلم دون مُقاومة، كأنّه فريسة لشفتيها الحارقتين. عندئذ ضمّ بين ذراعيه هذا الجسد المجهول، مُتردّداً وغير واثق ممّا عليه القيام به. ضمّ الجسد إليه فجأة بلذّة، وشرعت يداه تنزلقان بنهم على طول الأشكال

الرّطبة فيه، ثمّ تتوقّف مُنسحبة مرتعشة، كي تُعيد الكرّة محمومة وأكثر جرأة.

استقرّ الآن الثّقلُ اللّذيذ بكلّ حمله على صدره المستجيب، مضغوطاً كأنّه مُغمى عليه. شعر بنفسه، لنقل، مُجتاحاً بهذه الضمّة اللّاهثة مأخوذاً بها، وقد انثنت ركبتاه. لم يعد يُفكّر في شيء ولم يتساءل كيف أتته هذه المرأة ولا ما اسمها. اكتفى بإغماض عينيه وكرع لذاذة شفتيها الغريبتين عليه والرطبتين المعطرتين، بلا إرادة، وبلا وعي، مُنداحاً في بلبال لا أوّل له ولا آخر. خال فجأة أنّ نجوماً قد هوت لفرط ما كانت التماعات تبرق أمامه، ولكثرة ما كان كلّ ما يلمسه حارقاً باعثاً شرارات. هو لا يعرف كم دام ذلك ولا ما إن كان قد عانى هذا الأسرَ اللّطيف ساعات أو ثوانيَ، في احتدام صراع غُلميّ، شاعراً أنّ كلّ شيء يغلي ويهذي ويترنّح، فريسة دوار لذيذ.

وفجأة انكسرت السّلسلة المحتدمة. فجأة انحلّت الضمّة التي كانت تضغط صدره، بشبه غضب. انتصبت المرأة المجهولة وها هو ذا سلفاً شعاع ضوء أبيض ينسلّ سريعاً على طول الشّجرات، فاختفت قبل أن تصدر عنه أيّ حركة ليستبقيها.

من تكون؟ وكم دام فعلُهما؟ نهض مُستنداً إلى جذع شجرة، شاعراً بالاضطهاد مُصاباً بالدوار. بدأ الهدوء ينبعث من جديد شيئاً فشيئاً في دماغه المحموم. كم وقتاً دام ذلك؟ بدت له حياته فجأة كأنّها راكمت ساعات جديدة تُعدّ بالآلاف... أتكون أفكاره الملتبسة كلّها، والمرتبطة بالنّساء وبالشّغف بهنّ، قد أضحت فجأة حقيقةً ماثلة؟ أم أنّ الأمر لا يعدو أن يكون حلماً، رغم كلّ شيء؟ جسّ جسده ورجّ شعره. صُدغاه اللّذان تُنكّل بهما الحمّى رطبان ومُبلّلان بندى العشب الذي تدحرجا فيه. عاد كلّ شيء ليُستعرض أمام عينيه بسرعة البرق. أحسّ من جديد بالشّفتين الحارقتين للمرأة المجهولة، واستنشق عطر اللّذة الغريب والواخز مُنبعثاً من ملابسها، مُحاولاً تذكّر كلّ كلمة تلفّظت بها، لكن لا كلمة واحدة أسعفت ذهنه.

وها هو ذا فجأة يتذكّر بقلق أنّها لم تقل له شيئاً وأنّها لم تُناده باسمه، وأنّه لا يعرف عنها إلّا تنهّداتها التي طفح بها قلبُها، ودموعَها المحبوسة مُتشنّجةً بالرّغبة، وشذى شعرها المتحرّر، والضّغطَ الدّافئ لنهديها ولون جلدها الموحّد. هو يتذكّر أنّه استنشق نفَسها، وأنّ جسدها وقلبها الخافق كانا قد صارا جزءاً منه، وأنّه، مع ذلك،

يجهل من تكون هذه المرأة التي أتت لتُهاجمه ليلاً بحبّها. كان كلّ ما فعله أن تمتم بكلمة عبّر بها عن مُفاجأته، عن سعادته.

تبدو له الآن هذه الدّقائقُ التي لا مثيل لها، والتي عاشها لتوّه مع المرأة المجهولة، مُبتذلةً للغاية وبلا معنى مُقارنة بهذا اللّغز المدوّخ الذي يجلبه مثل عينين مُبهرتين مُثبّتتين عليه في الظّلمة. من تكون؟ استعرض في ذهنه كلّ الإمكانات وعرض أمام عينَيه صور مختلف النّساء المقيمات في القصر. استحضر كلّ اللّحظات الغامضة وأقلّ المحادثات وأدنى تبسّمات خمسِ نساء أو ستّ ممّن يمكن أن يكون لهنّ دخل في هذا اللّغز. الكونتيسة الشّابة أ...، ربّما، فهي غالباً ما تُعامِل زوجَها المتقدّم في السنّ بجفاء، أو ربّما زوجة عمّه الشّابة، التي تملك عينَين برقّة غريبة غير أنّهما تتبدّلان مع ذلك؟ أم ربّما قد تكون -ارتعش من هذه الفكرة- إحدى الأخوات الثّلاث، بنات العمّ هؤلاء، المتشابهات في صرامتهنّ وتعاليهنّ وغطرستهنّ؟ كلّا... فهنّ جميعاً شخصيات باردة ومتحفّظة. لطالما اعتبر نفسه، خلال هذه الأيام الأخيرة، محروماً، وكان قد جعل يعتبر نفسه مريضاً منذ أن شرعت حالات احتدام مشاعره هذه ترجّه وتُلهب أحلامه. كم

اشتهاهنّ، هؤلاء النّسوة جميعاً، الهادئات، أو المتظاهرات بكلّ هذا الهدوء وهذه الرّزانة وهذا التّجرّد من كلّ رغبة! لطالما خشِيَ شغفه الوليد مُعتبراً إيّاه ضرباً من المرض. والآن... لكن مَن؟ مَن منهنّ قادرة على هذا الضّرب من التخفّي؟

شيئاً فشيئاً جعل هذا السّؤال الذي ملك عليه شغاف قلبه يُبدّد ثمالة حواسّه. كان الوقت متأخراً وقد انطفأت أنوار قاعة الاستقبال. هو الوحيد الذي لا يزال يدبّ على قدميه في القصر... وهي أيضاً، ربّما، الأخرى، تلك المجهولة. بدأ يشعر بالتّعب يُفتر أطرافه. ما جدوى الاستمرار في التّفكير؟ إنّ نظرةً أو انبعاثَ لهبٍ بين جفنين أو ضغطاً خفيفاً على الكفّ سيكشف له كلّ شيء غداً، هو متأكّد من ذلك. ارتقى السلّم مُتفكّراً كما كان نزله، لكن أحلامه أمست الآن مُختلفة، لا يزال دمه مُصطخباً قليلاً. غرفته الدّافئة بدت له الآن أكثر طراوة وأشدّ إنارة.

عندما استيقظ صباح اليوم التّالي، كانت الجياد قد جعلت تكدِف في السّاحة مُتعجّلة. سمع اسمه يُنطق وسط الضّحكات. نهض قافزاً. كان وقت الفطور قد انقضى، فارتدى ملابسه بسرعة محمومة وسارع إلى الأسفل حيث استُقبل بحفاوة. «أيها الكسول العظيم!»، أطلقت في

وجهه، ساخرة، الكونتيسة أ. . . ، وقد لمعت في الآن نفسه بسمةٌ في عينيها الشّفافتين. تفرّس محيّاها بعين فضولية: لا يُمكن أن تكون المعنية، لأنّ ضحكتها خالية من القلق. «هل رأيت أحلاماً سعيدة؟» قالت المرأة الشّابة مُتهكّمة. زد على ذلك أنّ جسدها بدا له شديد النّحول. أجال بسرعة نظرة مُتسائلة من وجه إلى وجه دون أن يكتشف على أيّ منها أثرَ بسمة.

قاموا بجولة في الأرياف على صهوات الجياد. أرهف السّمع بانتباه لصوت كلّ واحدة من النّساء وراقب قسمات أجسادهنّ وتموّجاتها من جلوسهنّ على مطاياهنّ. راقب طريقتهنّ في التقوّس أو في رفع الذراعَين. وأثناء الغداء، مُنتصف النّهار، جعل يميل مُقترباً منهنّ وهو يُحادثهنّ ساعياً إلى شمّ رائحة شفاههنّ أو دفء شعرهنّ. لكنّه لم يعثر على شيء. لم يلحظ أيّ قرينة ولا أقلّ طريق يُطلق عليها خَيَاله الملتهب. ظلّ يضطرم إلى أن حلّ المساء. وما أن حاول أن يقرأ حتى شرعت الأسطر تقفز إلى ما بعد الهامش فقادته فجأة إلى الحديقة، وقد أرخى اللّيل أسداله من جديد. إنّه ليل غريب تخيل نفسه فيه مرّة أُخرى مضغوطاً بين ذراعَي امرأة مجهولة. عندئذ وضع الكتاب من يديه راغباً في

الذّهاب إلى الحديقة. وفجأة وجد نفسه في الممرّ الحصِبِ مذعوراً، وقد غدا في نفس المكان الذي حصل فيه ما حصل. أثناء العشاء اجتاحته الحمّى وأضحت كفّاه متوتّرتين كأنّه لا يقدر على التحكُّم فيهما، فلم تكفّا عن جسّ كلّ ما يقع في مُتناولهما. احتفظ بعينيه مُنكّستين خجلاً، ولم يشعر بالارتياح إلّا عندما علا صوت المقاعد المجرورة أخيراً، آه أخيراً! طار خارج الغرفة وسارع إلى الحديقة وبدأ يصعد الممرّ وينزله وقد بدا له كأنّه غيمة حليبية انبسطت تحت قدميه. عشرون مرّة، ألف مرّة ربّما، صعده ونزله. هل أوقدوا أنوار قاعة الاستقبال؟ نعم، فها هي ذي الأضواء تلمع أخيراً، كما أنّ نافذتين أو ثلاثاً مُنارتان في الطّابق الأوّل. انسحبت النّساء. إن كانت ستأتي فليس أمامه سوى بضع دقائق للانتظار. لكن كلّ واحدة من هذه الدّقائق شرعت تنتفخ حتى أضحت مهدّدة بالانفجار، مُتضرِّجةً تعجّلاً. واصل ذهابه وإيابه، ماشياً باحتدام، وكأنّ حبالاً غير مرئية تسحبه.

وها هو ذا الشّكل الأبيض ينزلق فجأة أسفل السّلم، بسرعة؛ أسرعَ من أن يستطيع تعرّف صاحبته. كان يبدو كأنّه شعاع قمر أو قناع ضائع، طافٍ بين الأشجار تدفعه ريح سريعة نحوه. هي ذي بين ذراعيه اللّتين انضمّتا مثل

برثنين نهمين على هذا الجسد المضطرم الخفّاق. كانت لحظة متفرّدة، من جديد، مثل الأمس، فأتت هذه الموجة الحارقة لتتكسر على صدره. شعر بنفسه يخور بفعل الصّدمة اللّذيذة فلم تعد له سوى رغبة واحدة: أن يترك نفسه تهيم وأن تزدرده بالوعة اللّذة. لكنّ ثمالته خفّت فجأة، واستعاد تحكّمه في احتدامه. كلا، لن يترك نفسه لهذه اللّذة العجيبة، ولن يستسلم لهاتين الشفتين النهمتين قبل أن يعرف الاسم الذي يحمله هذا الجسد المحتكّ به بهذا الاضطرام حتى بدا له وكأنّ قلباً غير قلبه يخفق في صدره! مال إلى الخلف برأسه، تحت القُبل، ليرى الوجه، لكنّ ظلالاً نزلت عليهما مُمتزجة، في الضّوء الخافت للقمر، بشعرها الدّاكن. كانت أوراق الشّجر كثيفة وضوء القمر المحجوب بالسّحب خافتاً للغاية. لم يلمح إلّا عينيها اللمّاعتين كأنّهما جمرتان تُرصّعان عمق رخام أبيض.

سعى لحظتها إلى سماع كلمة، نبرٍ واحد يصدر عن صوتها: «من أنت؟ أخبريني، من تكونين؟» سأل. لكنّ هذا الفم الرّطب السّائغ ظلّ أخرس لا يَهبُ إلّا القبلات، متمنّعاً عن نبس لفظة واحدة. أراد أن ينتزع منها كلمة، صرخة ألم، فضغط ذراعها ناشباً الأظافر في اللّحم. لكنّه

لم يشعر على صدره الصّلب إلّا بلهاث وبتنهيدة حارقة وبالشّذى الآسر لشفتيها اللّتين ينبعث منهما أحياناً ما يُشبه شكوى خفيفة، تحت تأثير اللّذة أو الألم، هو لا يستطيع أن يُحدّد. فقد رُشده وهو يرى نفسه في ذات الآن بلا حيلة أمام التحدّي الذي تفرضه عليه هذه المرأة المطواع الممسكة به في الظّلمة دون أن تكشف له من تكون، وأمام فكرة أنّه السيّد المطلق لجسدها المرتعش، لكنه عاجز أن يعرف اسمها. تملّكه الغيظ فقاوم ضمّة المرأة، لكنّها، هي من جهتها، أسعدها وهدّأها أن رأت ذراعه ترتخي مُنتبهة إلى بلباله، فسحبته نحوها مُداعبة شعره بكفّ هاذية. وعندما لامسته بأصابعها أصدت على جبهته قطعة معدنية، حُلية صغيرة من دملجها، فراودته على الفور فكرة. وكما لو كان قد انتابه فجأة فيضٌ من الشّغف المُهتاج، أمسك بيدها وسحبها إليه ضاغطاً بقوة على ذراعه نصف العارية بالحلية التي انطبعت على الجلد. الآن وهو يمتلك قرينة مُؤكّدة يشعر بأثرها الحارق على جسده، استسلم بالكلّية لرغبته التي كان قد تحكّم فيها لحظة. انضغط بقوة إلى المرأة وشرب من لذائذ شفتيها وارتمى بجسد ضائع في الجنون الملغز والمحتدم لهذا العناق الأخرس.

وعندما نهضت، كما فعلت أمس، متوثّبة وهربت،

لم يسعَ إلى استبقائها، مُتعجّلاً بشدّة تعرّف الأثر. مضى إلى غرفته مسرعاً وأشعل لهب لسان المصباح ومال بفضول على العلامة المطبوعة عن الحلية على ساعده.

ما عادت شديدة الوضوح. امّحت أنحاؤها جزئياً لكنّ زاوية من الحلية طَبَعَت على جلده أثراً أحمر بدقّة مُتناهية. من المفروض أن تكون حلية ذات زوايا مقدودة في شكل حوافّ، ثُمانية الأضلاع، من الحجم المتوسّط، قريبة في شكلها من قطعة نقدية، لكن بنتوء ظاهر، لأنّ ها هو ذا تجويف واضح محفور بعمق. وبينما كان يتعمّق في فحص الأثر، جعل يُؤلمه كأنّه النّار. آلمه فجأة مثل جرح ولم يختفِ الألم إلّا بعد أن أغطس ذراعه في الماء. هو يشعر الآن أنّه واثق تماماً من نفسه، فالحلية ثُمانية الأضلاع. لمع النّصرُ في عينيه، وغداً يكون على علم بكلّ شيء.

كان في صباح الغد أحد الملتحقين الأوائل بمائدة الفطور. لم تكن حاضرة من النّساء سوى أخته والكونتيسة أ... وآنسة بدأت تتقدّم في السّن. كنّ جميعاً رائقات المزاج، يُثرثرن غير عابئات به، فأمكنه بسبب من ذلك مُراقبتهنّ بسهولة. ألقى بنظرة سريعة على المعصم الهزيل للكونتيسة. لا دُملجَ فيه، فغدا بإمكانه اعتباراً من هذه

اللّحظة فقط أن يُبادلها الحديث باطمئنان، لكنّ عينيه لم تكفّا مع ذلك عن مراقبة الباب، بتوتّر. وها بنات عمّه يلجن القاعة مُجتمعات. تولّاه الاحتدام. لمح ما يُشبه دمالج مُختفية جزئياً تحت أكمامهنّ، لكنّه لم يتأكّد لأنّهنّ سُرعان ما أخذن أماكنهنّ على المائدة، قُبالته تماماً. كيتي بشعرها الكستنائيّ ومارغو الشّقراء وإليزابيث ذات الشّعر البرّاق الذي يلمع في العتمة كأنّه من فضّة ويبدو في الشّمس مثل أمواج من ذهب. هنّ جميعاً كما يكنّ في العادة هادئات وباردات ومُحتفظات بمسافة عن الحضور وثابتات في هذا الاعتزاز بالنّفس الذي يكرهه فيهنّ لأنّهنّ لا يكدن يزدن عن عمره شيئاً وكنّ، منذ سنوات قليلة، رفيقاته في اللّعب. زوجة عمّه الشّابة لم تنزل بعد من غرفتها. طفق قلب الفتى يخفق بسرعة تتزايد تدريجياً، وهو يشعر أنّ فكّ اللّغز يقترب، فجعل فجأة يُحبّ الألم الملغز لهذا السّر. غير أنّه ألقى بنظرة -وقد استبدّ به الفضول- على المائدة التي تضع الفتيات على حاشيتها أكفّهنّ ثابتة أحياناً ومُتنقّلة أخرى على البياض النّاصع لغطاء المائدة، شبيهة في ذلك بسفن في خليج يلمع لُجين مائه نوراً. لم يكن يُتابع بنظره إلّا هذه الأيدي، حتى بدت له لحظة كأنّها كائنات مُستقلّة عن ذوات صاحباتها، أو

كأنّها شخوص على خشبة المسرح، تملك كلّ منها روحاً وحياة خاصّة بها. لكن لماذا يخفُق صُدغاه بهذا العنف كلّه؟ لقد لمح مُرتعباً أنّ بنات عمّه يُزينَّ ثلاثتهنّ معاصمهنّ بدمالج، فبلبله اقتناعه بأنّ المعنية قد تكون واحدة من هؤلاء الفتيات الثّلاث المتعاليات، والباديات كأنّهنّ مُنزّهات عن كلّ شبهة، واللّاتي كان دوماً على معرفة بهنّ، حتى لمّا كان طفلاً، والمتميّزات بانطوائهنّ على نفوسهنّ. لكن من منهنّ هي صاحبته؟ كيتي، التي يعرفها أقلّ من الأخريين، لأنّها البكر، أم مارغو العابسة أم ربّما إليزابيث ذات الجسد الضّئيل؟ لم يجرؤ على تمنّي أن تكون إحداهنّ هي المعنية. فهو يُفضّل في أعماقه أن لا تكون صاحبته منهنّ، أو أن لا يعرف أبداً. لكنّ فضوله غلبه.

تحشرجَ صوتُه كما لو كان بحنجرته رمل. «كأس شاي أخرى من فضلك يا كيتي». ومدّ كأسه. وجدت نفسها مُرغمة على رفع ذراعها ومدّها فوق المائدة في اتّجاهه. لمح على دملجها حلية تتهادى، فتشنّجت كفّه لحظة. كلّا، إنّها حجر أخضر ذو شكل مستدير وقد أصدى عند اصطدامه بالإبريق الخزفيّ، فشمل الشّعر الكستنائي لكيتي، عرفاناً بالجميل، بنظرة حانية كأنّها قُبلة.

تنفّس لحظة.

«هلّا تفضّلت يا مارغو بتمكيني من قطعة سكّر؟»، ارتفعت من الجهة الأخرى للمائدة كفّ رقيقة فامتدّت فأمسكت بسكّرية من فضّة فقرّبتها. ارتعشت كفّ الفتى قليلاً في هذه اللّحظة، لأنّه قد لمح في المكان الذي يختفي فيه المعصم تحت الكمّ، دملجاً منقوشاً برقّة تتأرجح منه حُلية قديمة من فضّة، مقدودة حواشيها في شكل ثُماني الأضلاع، كبيرة وشبيهة بقطعة نقدية، هي حلية عائلية على ما يبدو. هي ذي بالفعل الحلية ثُمانية الأضلاع، بزواياها الحادّة التي طَبَعَت بالأمس على لحمه عضّتها الحارقة. افتقدت كفّه للثّبات فهوى ماسك قطع السكّر مرّتين إلى جانب السكّرية، قبل أن يُمسك بقطعة ويُلقي بها في شايه الذي نسي أن يشربه.

مارغو! أحرق هذا الاسم شفتيه، فكادت مُفاجأته الكبيرة تنتزع منه صرخة، لكنّه ضغط أسنانه. جعل عندئذ يُنصت إليها تتحدّث (فبدا له صوتها غريباً وكأنّه أمام شخص يخطب من على كرسي العظات). تتحدّث ببرود وبرباطة جأش يتخلّل كلامَها سخريةٌ خفيفة، وكانت تتنفّس بهدوء حتى أنّ التّخفي المرعب الذي تعرفه حياتها جعله يشعر بما يُشبه الارتعاش. هل هذه حقّاً هي المرأة

التي جنى أمس تنهيداتها وقبّل شفتيها الرّطبتين والتي ارتمت عليه ليلاً كما يرتمي كاسرٌ على فريسته؟ لم يكفّ عن النّظر إلى شفتيها. أجل، إنّ خلفَهَا يختفي التّحديّ، السرّ، لكن في أيّ جزء منها يُمكنه تعرّفُ شغفها؟

فحص وجهها بمزيد من الانتباه وكأنّه يراه لأوّل مرّة، فقدّر بسعادة -وهو يرتعش مُتعةً، قريباً من البكاء- أنّ اعتزازها بنفسها ضاعف من جمالها وأنّ هذا اللّغز زادها إغواءً. تابع بصرُ المراهق عن سبق إصرار الخطّ المقوّس لحاجبيها اللّذين يرتفعان فجأة ليُشكّلا زاوية حادّة، ثمّ غطس في الجوهرة الباردة الرّمادية الخضراء لعينَيها، ولامس البشرة الشفّافة لوجنتَيها. بعد ذلك جال حول القوس الممتدّ لشفتَيها اللّتين يراهما الآن أكثر حسّية، وتاه حول شعرها اللّامع، ثمّ سرعان ما نزل شاملاً بلذّة شخصها في كلّيته. لم يسبق له قطّ أن عرفها كما عرفها في هذه اللّحظة. وعندما نهض عن المائدة ارتعشت رُكبتاه، لأنّ رُؤيته لمارغو كانت تُثمله كأنّها خمر مُسكرة.

راحت أخته تُناديه من الأسفل، لأنّ الجياد أُعدّت من أجل الجولة الصباحية، جاعلةً تكدف بقوائمها وتعض شكائمها. امتطى الفرسان مطاياهم تباعاً فانطلق الموكب

في غير انتظام عبر ممرّ الحديقة. مشوا في البداية بخبب خفيف قليلاً ما تناغمت رتابته مع وجيب قلبه السّريع. لكن ما أن تجاوزوا الباب حتى تركوا الزّمام للجياد وحادوا عن الطّريق بعضهم إلى اليمين وبعضهم إلى اليسار في السّهول المجتاحة بغمام صباحيّ خفيف. من المفروض أنّ النّدى كان عميماً لأنّ جواهر مُتحرّكة كانت تلمع تحت هذا الحجاب وقد اتّسم الجوّ بطراوة مُذهلة، وكأنّهم في جوار شلّال مائيّ. وسرعان ما انكسرت السّلسلة وتبعثرت الفرقة إلى مجموعات صغيرة ذات ألوان بهية. أضحى بعض الفرسان في الغابة واختفى آخرون خلف التّلال.

كانت مارغو ضمن فرقة المقدّمة. إنّها تُحبّ هذا الاندفاع المتوحّش وهذه المداعبة المشغوفة للرّيح التي تعبث بشعرها، مُجتاحة بهذا الإحساس غير القابل للتّحديد والذي يدعوها إلى الغوص قدماً في تخييل قويّ. انطلق الفتى في أثرها. جعل عنف هذا التّمرين جسد الفتاة المتغطرس يستقيم، ووسمه بتأرجح سائغ. كان يلمح أحياناً وجهَها المغمور بحمرة خفيفة وعينيها البرّاقتين، فاستطاع أن يلحق بها بعد أن أنفقت جهدها بكلّ هذا العنف. تولّته رغبة قوية في أن يُمسك بها فجأة بين ذراعيه وأن ينتشلها من على فرسها وأن يكرع من

جديد رُضابها الملتهب وأن يشعر، ذاهلاً، بقلبها يرتعش خفّاقاً على صدره. نغز الفرسين فقفزا صاهلين، وها هو ذا بجوارها تُلامس ركبته ركبتها، وقد جعل ركاباهما يُصديان من تماسّهما. يجب الحديث الآن، لا بدّ من الحديث. «مارغو!» صاح مُتمتماً. التفتت عاقدة حاجبيها. «ماذا وراءك يا بوب؟» سألته من دون اكتراث، نظرها بارد لمّاع. عبرت رعشة ظهره. ما الذي يُريد الإفضاء به؟ هو ما عاد يعرف. تلعثم ببضع كلمات تعني ضرورة الرّجوع. «هل تعبت؟» سألت بنبر بدا له مُنطوياً على سخرية خفيفة. «لا، لكنّ الآخرين بقوا بعيداً خلفنا»، قال بصعوبة. لحظةٌ أخرى -هو يشعر بذلك- وسيرتكب أمراً بلا معنى، كأن يمدّ ذراعيه نحوها وينخرط في البكاء أو أن يجلدها بسوطه الصّغير الذي يرتعش في كفّه كأنّه مُكهرب. كبح فجأة جماح فرسه فوقف على قائمتيه الخلفيتين، بينما واصلت هي سيرها، مُتعالية، شديدة الاستقامة، لا سبيل إلى ولوج عالمها.

سرعان ما التحق به الآخرون. راح يسمع حوله، يميناً وشمالاً، طنين حديث بهيج، لكنّ الكلمات والضّحكات التي تُصدي في آذانه بدت له أفرغ من المعنى من صدى الحوافر المغشّاة بالحديد. كانت فكرةُ أنّه جبُن

فلم يُحدّثها عن حبّه وأنّه لم ينتزع منها اعترافاً، تُزعجه، فغدت رغبته في تطويعها أكثر حدّة، حاطّة على الطّريق أمام ناظريه كحجاب أحمر مبسوط. لماذا لم يسخر منها كما سخرت هي منه بهيئتها المتغطرسة؟ همز فرسه لا إرادياً فلم يسترجع هدوءه إلّا وقد انطلق في عدو عنيف. غير أنّ الآخرين نادوه من أجل العودة. كانت الشّمس قد تجاوزت التلّة وجعلت تلمع عالياً في سماء مُنتصف النّهار. أقبلت من الحقول هبّات بشذى سائغ، وأضحت الألوان أكثر حيوية تُحرق العيون وكأنّها ذهب يُذاب. أضحى الجوّ في الأرياف حارّاً وثقيلاً، فجعلت الجياد المتصبّبة عرقاً تمشي بحماس أقلّ. فقدت البهجة من توهّجها وغدت المحادثات نادرة.

عادت مارغو للظّهور هي أيضاً، مطيتُها مُغشّاةٌ زبداً وقد ارتعشت نُدفٌ خفيفة منه على فستانها، وصارت خصلات عقيصتها مُهدّدة بالتّبعثر، لأنّ المقابض لم تعد تُمسكها إلّا جزئياً. سحرت الفتى رؤيتُه ضفائرَها الشّقراء، وملأته تأثّراً فكرةُ أنّ بإمكان هذه الضّفائر أن تُفلت فجأة فتحلّق في جدائل هوجاء على كتفيها. كانوا قد جعلوا يرون سلفاً، في عمق الممشى، الباب المقوّس للحديقة وخلفها الممرّ الشّاسع الذي يقود إلى القصر.

تقدّم خفية مُرافقيه فوصل الأول وترجّل ومدّ زمام فرسه إلى خادم ووقف مُنتظراً. وصلت مارغو ضمن المجموعة الأخيرة. أتت في خبب خفيف جسدها مائل إلى الخلف وكأنّ الإثارة قد أنهكتها. من المفروض أنّها كانت على هذه الحال أمس وهي ترجع من ثمالتها. ألهبته هذه الذّكرى فسارع بالقرب منها وساعدها، مقطوع الأنفاس، على الترجُّل.

احتضن محموماً كاحلها الرّقيق وهو يُمسك بركابها. «مارغو!» تمتم بخفوت مع إطلاق تنهيدة. لم تُجبه حتى ولو بنظرة وأمسكت بلا اكتراث بالكفّ الممدودة لها لتقفز إلى الأرض.

«يا لجمالك يا مارغو!» تمتم مرّة ثانية. نظرت إليه بقسوة عاقدة حاجبيها تعالياً. «أراهن يا بوب أنّك سكران! ما الذي تُغنّيه لي هنا؟»، لكن بوب المُثار بكلّ هذا التخفّي، وقد أعمته رغبته، ضغط بقوة إليه كفّ الفتاة التي لا تزال في كفّه، كما لو كان يُريد جعلها تغوص في صدره. عندئذ دفعته مارغو متضرّجة غيظاً، ما جعله يتأرجح ومرّت سريعة أمامه. كان المشهد سريعاً ومُفاجئاً حتى أنّ أحداً لم يُلاحظ شيئاً وأنّه بإمكان المراهق بدوره أن يعتقد أنّه كان لتوه أُلعوبة في يد كابوس.

امتقع لونه وظلّ منزعجاً ما تبقّى من النهار حتى أنّ الكونتيسة الشّابة داعبت شعره أثناء مرورها وسألته ما به. كان مزاجه سيّئاً إلى درجة أنّه ركل كلبه فقفز وراءه نابحاً. وأثناء اللّعب بدا فاقداً لكلّ مهارة ما جعل الفتيات يهزأن به. فكرة احتمال عدم قدومها هذا المساء تُعذّبه وتجعله فظّاً وشرّيراً. اجتمعوا في الحديقة لشرب الشّاي. جلست مارغو قبالته لكنّها لم تنظر إليه. كانت عينا بوب، المجلوبتان كما لو بمغناطيس، لا تُفارقان عيني الفتاة اللّتين كانتا، من جانبهما، باردتين وقاسيتين مثل قطعتين من الصوّان. تملّكه الغيظ من أن يراها هكذا تلعب به. وبما أنّها التفتت فجأة فقد ضغط قبضته شاعراً أنّ بإمكانه قتلها بكلّ برود.

«ما بك يا بوب؟ تبدو شديد الامتقاع» قال صوت فجأة بالقرب منه. إنّها إليزابيث الضّئيلة، أخت مارغو. كان لهب دافئ ورقيق يلتمع في عينيها لكنّ بوب لم يلمحه. أحسّ أنّه قد فُوجئ، لنقل، فصاح غاضباً: «لأُترك وشأني، ولأُعفَ من هذا التّضامن الغبي!» ثمّ سريعاً ما ندم لأنّ إليزابيث الموبَّخة التفتت إليه وخاطبته دامعة العنين: «أنت غريبٌ حقّاً!». رموه جميعاً بنظرات غاضبة وشبه مُهدِّدة، فانتبه إلى سلوكه غير القابل

للإصلاح. لكن قبل أن يسعفه الوقت للاعتذار، ارتفع صوت من الجانب الآخر من المائدة، قاسياً وحاسماً كشفرة سكّين. إنّه صوت مارغو: «وعلى أي حال، فأنا أعتبر بوب سيّئ التّربية أخذاً لسنّه بالاعتبار. من الخطأ مُعاملته مثل رجل نبيل أو حتى مثل رجل شابّ!». مارغو هي من قالت ذلك، مارغو التي وهبته اللّيلة الماضية شفتيها. أحسّ بكلّ ما حوله يدور وبانتشار ضباب أمام عينيه، وقد استولى عليه غضب شديد: «من المفروض أن تكوني أنت تحديداً أعلمَ الآخرين بذلك!» قال وهو يضغط بمكر على الكلمات. انتصب واقفاً فجأة حتى أن مقعده انقلب خلفه، لكنّه لم يلتفت.

مع ذلك، ومهما بدا له سلوكه خالياً من أيّ معنى، كان حاضراً مساءً إلى الحديقة، راجياً ربّه أن تأتي. ربّما لم يكن ذلك منها سوى ذرّ للرّماد في العيون وغطرسة... كلّا، لن يعود إلى سؤالها ولا إلى إزعاجها، وعلّها تأتي وعلّه يستطيع من جديد أن يشعر على شفتيه بالرّغبة المحتدمة لشفتيها الرّقيقتين والمبلّلتين واللّتين تضعان حدّاً لكلّ الأسئلة. بدا له أنّ السّاعات نائمة وأنّ للّيل هيئةَ حيوانٍ كسول مُضطجع أمام القصر. مرّ الوقت ببطء شديد. خُيل إليه أنّه سمع أصواتاً ساخرة

تهمس حوله ممزوجة بالهسهسة الخافتة للعشب. خُيل له أنّ هذه الأغصان والأفنان المتحرّكة برقّة واللّاهية بظلّها في الالتماع الباهت للإنارة، كأنّها أياد مُتعدّدة متهكّمة. هذا الضّجيج كلّه مُلتبس وغريب، وأكثر إزعاجاً من الصّمت نفسه. ينبح أحياناً كلب في البعيد في الأرياف، ومرّةً يسطر السّماءَ نجم هاوٍ ويختفي في مكان ما خلف القصر. بدا وكأنّ اللّيل يُنار وأنّ ظلّ الأشجار يتخفّف على الطّريق وأنّ الضجيج الخفيف يُصبح أكثر خفوتاً فأكثر. ثمّ غشّت السّماءَ فجأة غيوم عابرة بظلمة كثيفة مليئة حزناً، وأثقلتِ الوحدةُ مُؤلمةً على قلب الفتى المُحيَّر.

جعل يمشي ويجيء أسرع فأسرع وأكثر اضطراباً فأكثر، وتحطّ قبضته أحياناً بغضب على جذع شجرة أو تنتزع منه قطعة لحاء يشرع في تفتيتها بين أصابعه بغلّ حتى دَمِيَت. كلا، لن تأتي، وهو كان على علم بذلك. غير أنّه لا يُريد أن يُصدّق، رغم كلّ شيء، لأنّ الأمر إن كان كذلك فإنّها لن تأتي أبداً، لن تعود للمجيء أبداً. إنّها اللّحظة الأشدّ إيلاماً في حياته. كان شغفه الطّفولي من القوة بحيث ارتمى بعنف على الزّبد الندي فالحاً الأرض بأصابعه بينما كانت الدّمعات الحارة تسيل على

وجنتيه ناشجاً بصمت كما لم يسبق له أن فعل وكما لن يستطيع أن يفعل في الآتي من حياته.

وفجأة أخرجه من خيبته صوت خشخة قادمة من الأشجار المتشابكة. نهض متوثّباً ومدّ كفّه أمامه على غير هُدى، واستقبل بين ذراعيه هذه القفزة اللذيذة الدّافئة الآتية لتصطدم فجأة بصدره؛ استقبل هذا الجسد الذي ظلّ يحلم به في احتدام. انبعث نشيج من حنجرته وعبر جسده كلّه تشنُّجٌ عنيف لم يسبق له أن شعر بمثله فضغط إليه بعنف الجسد النّحيل والصّلب الذي انقاد له حتى أنّ أنّةً شاكية خرجت خرساءَ من بين شفتي الغريبة. عندما سمعها تئنّ من ضغطته علم لأوّل مرّة أنّه سيّدها وليس كما كان بالأمس وأوّل أمس مجرّد فريسة لنزوتها. حدته الرّغبة في أن يُعذّبها على ما جعلته يُعانيه من انزعاج طويل، دام ساعات وساعات، وأن يُعاقبها على كبريائها وعلى الكلمات المحتقرة التي تلفّظت بها في حقّه هذا المساء أمام الجميع، وأن يُجازيها على لعبتها الخادعة. كانت الكراهية قد اختلطت طُرّاً بحبه المتّقد حتى أضحى هذا العناق أقرب إلى الصراع منه إلى الحنان المفترض. ضغط بقوة شديدة المعصمين الرّقيقين حتى أنّ الجسد اللّاهث انفتل مُرتعشاً. سحبها إليه بعد ذلك بعنف شديد

إلى أن غدت عاجزة عن الحركة فلم تكفّ عن الأنين البهيم تحت تأثير اللّذة أو الألم، هو لا يدري. لكنّه فشل أن ينتزع منها كلمة واحدة. ولمّا أطبق بلهف بشفتيه على شفتيها كي يخنق هذه الشّكوى البهيمة، شعر على شفتيه بسائل دافئ ورطب. كانت قد عضّت شفتيها فجعل الدّم يسيل. استمرّ في تعذيبها بهذه الشّاكلة إلى أن خانته هو نفسه قوته فجأة وصعدت فيه موجة الرّغبة الحارقة. هما الآن يلهثان معاً صدرهما على صدر بعض، فعبرت اللّيلَ التهاباتٌ وخال أنّه لمح نجوماً تبرق أمام عينيه. تغمّم كلّ شيء واصطخبت أفكاره فجأة، مُتأجّجةً، فما عاد كلّ شيء يحمل سوى اسم واحد: مارغو. وفي فيض لذّته انبعثت أخيراً من أعمق أعماقه هذه الصّرخة، صرخة الابتهاج والخيبة والرّغبة والغلّ والغضب والحبّ، هذه الصّرخة التي تُكثّف ثلاثة أيام من البلبلة. مارغو، مارغو! فكانت موسيقى العالم، في اعتباره، تُطلق معزوفاتها من خلال هذين المقطعين.

كانت صرخته أشبه بضربة كِيلَت لها. فتر فجأة تأجُّج عناقها وآتت انتفاضة عنيفة ووجيزة وصعد من حنجرتها نشيج متشنّج. كانت حركاتها قد استعادت عنفها، لكن فقط كي تتخلّص من تماسٍّ غدا الآن ممقوتاً. حاول

مُفاجَأ من ردّ فعلها أن يستبقيها، لكنّها قاومته فأحسّ وهو يُقرّب وجهها من وجهه بدموع غضب تسيل على وجنتي هذه المرأة ذات الجسد الرّشيق المتحفّز مثل أفعى. دفعته عنها بعنف شديد ومفاجئ وانطلقت هاربة. تهادت البقعة البيضاء لفستانها بين الأشجار ثمّ ضاعت في حلكة اللّيل.

وها هو ذا مرّة ثانية يرتعش ذاهلاً كما في المرّة الأولى عندما كان هذا الجسد المتّقد والمشغوف قد فرّ منه فجأة. رقصت النّجوم أمام عينيه، كأنّها مُبلّلة، وراح الدّم يُنكّل بجبهته بنقرٍ حادّ. ما الذي حصل له؟ تتبّع اصطفاف الأشجار التي يزداد الاتّساع فيما بينها كلّما تقدّم، وتوجّه جاسّاً في الحديقة نحو المكان الذي يعلم بوجود حنفية فيه. ترك هذا الماء الأبيض الفضّي ينزلق على يده مُداعباً إيّاها مُوشوشاً له بأمور رقيقة وهو يلمع بصفاء غريب في أشعة القمر الذي يرتفع ببطء وسط الغيوم. أصبح بصره أكثر حدّة، واستولى عليه، بطريقة مُلغزة، حزن شديد بدا له كأنّه قادم من الأشجار الغملاقة، مع الرّيح الدّافئة. انبثقت من قلبه دموع حارقة، فانتبه بقوة -وبوضوح كامل يفوق وضوح لحظات العناق المرتعشة- إلى أيّ درجة هو يُحبّ مارغو. فما عاد لديه من اعتبار لما كان موجوداً حتى الآن من ثمالةٍ

وارتعاشٍ وتشنّجِ الامتلاكِ والغضب أمام السّر المُتستَّر عليه بإحكام؛ فلقد ملأ الحبّ عليه كيانه بشجن لطيف؛ حبّ يكاد يكون خالياً من الرّغبة، لكنّه سامق مع ذلك.

لماذا بلبلته إلى هذه الدّرجة؟ ألم تُشعره بالإشباع خلال هذه الأمسيات الثّلاث؟ ألم تمرّ حياتُه فجأة من غروب مُظلم إلى فجر مُنير ومُنذر، مُنذ أن جعلته يتذوق الحنان ورعشةَ الحبّ الرّهيبة؟ ثمّ ها هي تُغادره باكية وغاضبة! أحسّ بالحاجة إلى مُصالحتها تنبعث في داخله برقّة لا تُقاوم، وبالرّغبة في أن يقول لها كلمات رقيقة ومُهدّئة. حدته الرّغبة في أن يُمسك بها بين ذراعيه، بشكل ما، مُتحلّلاً من أيّ رغبة، وأن يُعبّر لها عن امتنانه. أجل سيذهب للبحث عنها ذليلاً فيُخبرها بنقاء حبّه، وأنّه لن يعود أبداً للتّلفّظ باسمها وسيحبس أسئلته.

جعلته أنشودةُ الماء الفضّية يتذكّر الدّموع التي سفحتها. هي الآن ربّما وحيدة في غرفتها، فكّر من جديد، لا كاتِمَ سرٍّ لها سوى هذا اللّيل المرتعش الذي يتجسّس على الجميع ولا يُعزّي أحداً. أحسّ بمعاناة لا تُقاوم وهو يشعر في ذات الأوان أنّه بعيد عنها وقريب جدّاً منها، دون أن يلمح أيّ بريق لشعرها ودون أن يسمع، حتى ولو بخفوت، نبر صوتها، في حين أنّ

روحيهما قد غدتا على هذا القدر من الامتزاج. أعرب عن رغبة لا تُقاوم في أن يكون بالقرب منها، حتى لو اقتصر ذلك على أن يضطجع على عتبة بابها مثل كلب مُخلص أو أن يقف على نافذتها كأنّه مُتسوّل.

وبما أنّه قد خرج بتوأدة من ظل الأشجار، فقد رأى نوراً في غرفة مارغو بالطّابق الأوّل. نور خافت لا يكاد شعاعه الأصفر يُلامس أوراق شجرة القيقب السّوداء العملاقة الشّبيهة بجاسوس أُوقف أمام النّافذة الصّغيرة المُنارة، وقد جعلت أغصانها، الشّبيهة بأذرع، تُحاول صفعَ زجاج النّافذة، متأرجحة بفعل النّسيم. جعلته فكرةُ كونها الآن ساهرة خلف هذا الزّجاج اللمّاع وأنّها تبكي ربّما أو تُفكّر فيه، يتبلبل بقوة حتى أنّه وجد نفسه مُرغماً، كي لا يترنّح، على الاستناد إلى جذع شجرة القيقب.

ثبّت بصره على النّافذة كالمفتون. طفت السّتائر البيضاء خارج منطقة الظّل، وقد حرّكتها هبّة ريح خفيفة. كانت تبدو أحياناً مثل ذهب عتيق في الضّوء الدّافئ الذي يعكسه المصباح، وأحياناً مُفضّضةً عندما يحملها النّسيم إلى شعاع القمر المتسلّل مُرتعشاً بين الأوراق المدبّبة. وكانت واجهة الزّجاج الدّاخلية تعكس الحركة الرّقراقة للظّل والنّور في شكل نسيج خفيف من الصّور. وقد ملأ

طفوُّ الظّلال ولمعانُها الفضّي، وهي تبعث ما يُشبه دخاناً رقيقاً على هذه المساحة الملساء، خيالَه برؤى مُتحرّكة، فرأى مارغو الفارعة الطّول والجميلة، بشعرها المتحلّل من كلّ قيد (أوه! شعرها الأشقر المنطلق على عواهنه)، وهي تمشي وتأوب في الغرفة، قلبها فريسة لنفس الانشغالات التي يعجّ بها قلبه. رآها تتخبّط في نفس حُمّى شغفه، سافحة دموعَ الغضب. الجدران العالية هي عنده الآن من زجاج، وهو يستشفّ أقلّ حركة من حركات مارغو ويستبين ارتعاش كفّيها، فرآها تهوي في أريكة مُتأمّلةً بخيبة أملٍ خرساء السّماءَ المتألّقة بالنّجوم. في لحظة، وبينما أُنير الزّجاج، خال حتى أنّه تعرّف وجهها وهو يُطلّ مهموماً على الحديقة الهاجعة، في مُحاولة لرؤيته. عندئذ، وبفعل عنف مشاعره المُثارة، ناداها بصوت مُتحكَّم فيه، لكنّه ضاغط: مارغو! مارغو!

هذا الشّيء الأبيض الذي انزلق لتوه بسرعة على صفحة الزّجاج، أليس حجاباً؟ هو يعتقد أنّه رآه. أرهف السّمع، لكن لا شيء يتحرّك. صعد وراءه النّفَسُ الخفيف للأشجار الغافية والاحتكاكُ الحريري للنّسيم بالأعشاب، ثمّ تصاعدا وعلا صوتهما من جديد، مثل موجة فاترة تخبو بلطف لتعود للصّعود من جديد. يتنفّس اللّيل بهدوء

وظلّت النّافذة خرساء مُؤطّرةً لوحةً من ظلام. ألم تسمع نداءه، أم ربّما هي لا تُريد سماعه الآن؟ أضحى في اعتمالٍ شديد بسبب هذا الالتماع المتحرّك. خفق قلبه المصطخب بدقّات قوية في صدره، وهو مُستند إلى لحاء الشّجرة الذي يبدو مُرتعشاً بشغف لا يقلّ قوّة عن شغفه. لم تعد لديه سوى فكرة واحدة: أن يراها الآن وأن يُحدّثها، فهل يُنادي باسمها مُجازفاً بإيقاظ النّائمين جميعاً؟ أحسّ أنّ أمراً ما سيحصل، فبدت له أكبرُ الحماقات مُمكنة الحصول ورأى كلّ شيء سهل التحقّق، كما لو في حلم. عندئذ لاحظ وهو يرفع بصره من جديد نحو النّافذة أنّ الشّجرة التي تكاد تكون محشورة في الجدار تمدّ نحو النّافذة أحد أغصانها وكأنّه إشارة مرور. ازدادت كفّاه التصاقاً بالجذع. وفجأة توضّحت أفكاره: عليه أن يصعد. الجذع سميك بالتّأكيد لكنّه يبدو مُحدّباً ما يعني أنّ ارتقاءه سهل. ومن ثمّة، فوق، سيُناديها، على بُعد سنتيمترات قليلة فقط من النّافذة. ما أن يصير قريباً منها سيُناديها ولن ينزل قبل أن تُسامحه. لم يُفكّر لحظة واحدة، ولم يعد لعينَيه من هدف سوى هذه النّافذة الآسرة، بينما كانت كفّاه تجسّ جذع الشّجرة الخشن، مُستعدّاً للتسلُّق. جرّتان أو ثلاثٌ، ثمّ مجهود إضافيّ وها

كفّاه تتشبّثان سلفاً بغصن، رافعاً جسده مُستعيداً توازنه بحمية. ها هو ذا بالقرب من قمّة الشّجرة مُعلّقاً على الغصون المتداخلة المتأرجحة تحت حمله. انتشر ارتعاش الأغصان مثل موجة حتى أدرك آخر الأوراق، وامتدّ الغصن أكثر نحو النّافذة كما لو ليُنذر الفتاة. لمح المتسلّق الآن العمق الأبيض للغرفة والدائرة الذّهبية المنيرة التي يعكسها المصباح على محيطه. ارتعش من الإثارة، فهو سيراها من لحظة لأخرى، هو على علم بذلك، وهي تنشج أو تبكي بهدوء، أو في العري المشهّي لجسدها. فترت ذراعاه لكنّه تماسك. جعل ينزلق بروية على طول الغصن المؤدّي إلى النّافذة. أدمت ركبتاه وانفلقت إحدى كفّيه. واصل الزّحف مع ذلك وصار على وشك ولوج نور النّافذة. حجبَت عنه الرّؤيةَ مجموعة أوراق، مانعة إياه من إلقاء هذه النّظرة الأخيرة التي طالما اشتهاها. كان قد مدّ يده سلفاً لإزاحتها، وكان شُعاع نور حادّ قد شمله، غير أنّه بينما مال إلى الأمام، مُرتعش الجسد، إذا به يترنّح ويفقد توازنه ويسقط لاقّاً.

سُمع على العشب صوت صدمة بهيمة، شبيهة بسقوط فاكهة ناضجة. وهناك، فوق، مال شكلٌ على النّافذة ينظرُ قلقاً. لكنّ العتمة كانت هادئة وصامتة مثل

بركة قد ألقت لتوها بغريق. بيد أنّ النّور سُرعان ما انطفأ واستعادت الحديقة مظهرها الخيالي وسط الظّلال الصّامتة.

خرج الفتى من انذهاله بعد بضع دقائق، وراح يُحدّق لحظةً في السّماء مذهولاً وممتقعاً فبدت له بضعة نجوم ضائعة كأنّها نظرة باردة مُسلّطة عليه. وفجأة جعله يهتزّ ألمٌ رهيب أحسّ به في ساقه اليمنى، ألمٌ أرغمه على الصّراخ مع أوّل حركة رام القيام بها. فهم على التو ما الذي حصل له وعقَلَ أنّ عليه أن لا يبقى مُمدّداً تحت نافذة مارغو، وأن لا يستغيث وأن لا يُحدث جلبة أثناء تنقّله. كان الدّم ينبجس من جبهته. يبدو أنّه قد ارتطم عند سقوطه على العشب بصخرة أو بقطعة خشب. مسح الدّم بكفّه حتى لا يسيل على عينيه. حاول، مُنكفئاً على جانبه الأيسر، أن يزحف غارزاً أظفاره في الأرض. كانت ساقه المكسورة تُؤلمه بشدّة مع كل اصطدام ومع كلّ اهتزاز، حتى أنّه خشي أن يفقد وعيه. تقدّم ببطء واستغرق ما يقرب من نصف ساعة ليُدرك السلّم. بدأ الخدر يغزو ذراعيه، وامتزج على جبهته عرق بارد بالدّم الذي لا يكفّ عن السّيلان. وكان ما تبقّى عليه القيام به أصعب ممّا مضى. عليه أن يُدرك أعلى السلّم، فلم يستطع القيام

بذلك إلّا ببطء مُتناهٍ ومُقابل آلام رهيبة. تشبّث بالدرابزين مُرتعشاً، مُستنزف القوى. قطع أيضاً، زاحفاً، الخطوات القليلة التي تفصله عن قاعة اللّعب حيث سمع كلاماً ورأى نوراً يلمع. انتصب مائلاً وفجأة، وقد تراجعت الباب أمامه، سقط مثل قذيفة في القاعة شديدة الإنارة.

من المفروض أنّ شكله كان مُرعباً عندما مرق هكذا في القاعة، داميَ الوجه، مُترَباً، فانهار على الفور على الأرضية مثل كتلة. انتفض الرّجال بعنف وانقلبت الكراسي وسارع الجميع إلى نجدته. حملوه محاذرين إلى الأريكة، فلم يستطع غير أن يُتمتم ببضع كلمات: لقد تدحرج إلى أسفل السلّم عندما أراد الذّهاب إلى الحديقة. وفجأة مرّت دوائر سوداء أمام ناظريه راقصة حوله مُحيطة به من كلّ جانب، فتغمّم بصره وفقد وعيه.

جُهّز فرس وسارعوا للبحث عن طبيب في أقرب قرية. سادت القصر حيوية عجيبة وقد استيقظ الجميع. أُشعلت في الممرّات أنوار مُترنّحة الحباحب وانفتحت الأبواب وسُمعت وشوشة وطُرحت أسئلة. وصل الخدم المُنتزعون من نومهم مرعوبين، فحملوا الفتى في الأخير إلى غرفته.

شخّص الطّبيب كسراً في قصبة السّاق وطمأن

الجميع: الجريح في منأى عن كلّ خطر، وعليه فقط أن يبقى أسابيع عدّة بغير حراك ساقه ملفوفة في الجبس. ابتسم الفتى بفتور عندما أخطروه بذلك، فهذا الخبر لم يسوءه كثيراً، لأنّ من الأحسن حقّاً -عندما نُريد التّفكير في المحبوب- التّمدّدَ هنا دون رفقة، بعيداً عن النّاس وعن الضّجيج، في غرفة بسقف عالٍ وجيدة الإنارة، قريباً من قمم الأشجار المرتعشة. من الرّائع التّأمّل هكذا براحةِ بالٍ، مع التّحلّل الكامل من كلّ واجب وكلّ مسؤولية، والانسياق مع الحلم بالمحبوب بهدوء، والعيش رأساً لرأس مع هذه الصّور الغالية التي تأتي مُقتربة من السّرير ما أن نُغمض جفوننا. فليس للحبّ ربّما من لحظات سائغة أجمل من أحلام اليقظة هذه الممتقعة والشّفقية.

ظلّ الألم شديداً أثناء الأيام الأولى، لكنّ هذه الأيام كانت بالمقابل عامرةً بمتعة تدعو للاستغراب. كانت فكرة كونه يُقاسي هذه الآلام من أجل حبّه لمارغو، محبوبته الغالية، تمنحه اعتزازاً باهراً بالنّفس، جديراً بقلب رومانطيقي. وفكّر أنّه كان من الأجدى وسمُ وجهه بجرح دامٍ، ليصير بإمكانه أن يُمثّل باستمرار، مثل فارس، ألوان سيدته. أو لرّبما كان أحسن صنعاً لو بقي فاقداً

وعيه، مُمدّداً أرضاً، مُنسحقاً. رأى في حلمه مارغو تستيقظ صباح اليوم الموالي على ضجيج النّاس المتسائلين أسفل نافذتها. أطلّت مُستطلعة فلمحته مُمدّداً على الأرض، ميتاً من أجلها، مسحوقاً أسفل نافذتها. قعدت صارخة، فسمع هذه الصّرخة الحارقة تُصدي في أُذنيه، وحضر بعد ذلك حزنَها وخيبةَ أملها. تبعها طوال حياتها، وقد عُطب وجودها فظلّت ردحاً طويلاً من الزّمن مُرتدية ملابس الحداد، تعيش حزينة ومهمومة، ويهزّ شفتيها ارتعاشٌ طفيف كلّما سألها النّاس عن سبب ألمها.

ظلَّ يحلم بهذه الشّاكلة أياماً كاملة، فقط وسط العتمة في البداية، ثمّ بعينين مُفتّحتين سرعان ما ألِفتا استحضار الصّورة الرّائعة للمحبوب. لا وُجود البتّة للحظةٍ شديدةِ النّورِ حتى تحجب ظلّها المشرق المنزلق عبر الجدران ليصل إليه، ولا أشدّ صخباً حتى لا يسمع صوتها في الخارج خَلَلَ سقوط قطرات المطر من الأوراق أو أثناء طقطقة الرّمل تحت أشعّة الشّمس الحارقة. يُحادث مارغو ساعات أو يتخيل أنّهما يُسافران معاً ويقومان بنُزهات فاتنة. لكنّه كان يخرج أحياناً مُضطرباً من أحلام يقظته، مُتسائلاً ما إن كانت بالفعل حزينة عليه؟ بل هل لا تزال تتذكّره حتى؟

كانت مارغو تأتي أحياناً بالتأكيد لزيارة المريض، وغالباً ما تفتح الباب وتدخل، بينما يكون الفتى آخذاً في مُحادثتها في خياله مُؤمناً أنّه يراها أمامه رؤية العين، فتَمثُل قُدّامه فارعة الطّول حسناءَ، لكن مختلفة تماماً، مع ذلك، عن تلك التي يراها في أحلام يقظته. هي ليست لطيفة، حقّاً، ولا تميل عليه لتقبّل جبهته كما تفعل مارغو أحلامه، وتكتفي بالجلوس بالقرب من أريكته الطّويلة وتسأله عن حاله وما إن كان يُعاني، وتنقل له بعض الأخبار المتفرّقة. كان حضورها يُسبّب له كلّ مرة ارتعاباً واضطراباً لذيذَين للغاية حتى أنّه لا يجرؤ البتّة على النّظر في وجهها. وغالباً ما كان يُطبق جفنيه حتى يسمع أحسن كلماتها وحتى يطبع أحسن على قلبه نبرَ صوتها ذا الموسيقى المتفرّدة التي تظلّ ترتعش بعد ذلك في أذنيه ساعات. كان يتردّد في إجابتها، لأنّه كان يُحبّ حبّاً شديداً لحظات الصّمت هذه والتي لا يسمع خلالها سوى تنفّس هذه الفتاة الشّابة، مُحبّذاً بقوة انطباعَه بأنّه موجود لوحده معها في هذه الغرفة، وفي الكون برمّته. وعندما تنتصب واقفة بعد ذلك وتمضي نحو الباب، يعتدل بصعوبة بالغة حتى يطبع في ذاكرته بدقّة كلّ قسمات شكلها المتحرّك وحتى يقبّلها لآخر مرّة بنظره، وهي بعدُ

أمامه حية، قبل أن يعود للسّقوط ثانية في لا يقينية حقيقة أحلامه.

تأتي مارغو لزيارته كلّ يوم تقريباً، لكن كيتي، ألا تأتي هي أيضاً؟ وإليزابيث بدورها، إليزابيث الضّئيلة التي تنظر إليه دائماً بعينيها المرعوبتين، وتسأله بصوت شديد الرقّة، قلقة للغاية، ما إن لم تكن حاله قد تحسّنت. وأخته، ألا تسأل عن أحواله كلّ يوم، والأخريات كلّهنّ أيضاً، ألا يأتين ويُبدين بالغ تأثّرهنّ؟ ألا يَفضُلن بجانبه يقصصن عليه كلّ أنواع الحكايات؟ هنّ يبقين بجانبه ربّما مدّة أطول، لأنّ حضورهنّ كان يطرد الأحلام من ذهنه، ويُخرجه من تأمّله الهادئ ويُرغمه على سماع كلام لا أهمية له، غبياً أحياناً. هو يودّ أن يكففن جميعاً عن زيارته وأن لا تأتي إلّا مارغو لتراه، ساعة واحدة فقط، دقائق معدودات لا غير، وبعد ذلك سيظلّ وحيداً ليحلم بها دون ملل ودون انزعاج، مُهدهَداً ببهجة لطيفة، وكأنّ سحباً رقيقة تطير به، مُستغرقاً في تأمّلات رُؤى حبّه المؤاسية.

لهذا السّبب كان غالباً ما يُطبق جفنيه ويتظاهر بالنّوم كلّما سمع مقبض الباب يدور. عندئذ كان الزّوار ينسحبون على بنان أقدامهم ويُعيدون إغلاق الباب بحذر،

فيغدو بمستطاعه الغوص من جديد في الأمواج الفاترة لأحلام يقظته التي تأخذه على كفّ مُهدهدة نحو بلدان بعيدة وفاتنة.

لكن، هذا ما حصل له ذات يوم: كانت مارغو قد زارته سلفاً، فبقيت بجانبه بعض الوقت لكنّها كانت قد آتته في شَعرها بكلّ شذوات الحديقة وبالأريج الآسر للياسمين المتفتّح، وفي عينيها بالإشراق اللمّاع لشمس شهر أغسطس. عندئذ صار على علم أنّ عليه أن لا ينتظرها بعد ذلك ما تبقّى من اليوم، فغدت أمامه إذاً فترةُ ما بعد زوالٍ مُشرقة وطويلة من أجل أحلام يقظة مُبهجة، خصوصاً أنّ أحداً لن يأتي لإزعاجه ما داموا قد مضوا جميعاً في نزهة على الجياد. وعندما انفتحت الباب فجأة من جديد دون ضجيج، أرخى جفنيه وتظاهر بالنّوم. لكنّ الشّخص الذي ولج الغرفة لم ينسحب. كان يستمع إلى كلّ شيء بوضوح شديد داخل الغرفة، حتى أدقّ نفَس. أغلق الشّخص الباب دون ضجيج حتى لا يُوقظه.

اقترب الشّخص منه مُحاذراً، قدماه تكادان لا تلمسان الأرضية. ميّز هفهفة فستان خفيفة. جلس الشّخص بالقرب منه. ومن خلال جفنيه المنكّسين أحسّ بالنّظرة الحارقة المتّقدة تنزل على مُحيّاه.

جعل قلبه يخفق بقوة. هل هي مارغو؟ بالتأكيد هي. هو يشعر بذلك على أيّ حال: إنّ عدم فتحه عينيه والاكتفاء بالشّعور بها إلى جانبه لهو ألذُّ وأشدّ وخزاً وذو فتنة مُلغزة وشهوانيّ. ما الذي ستفعله؟ بدا له الزّمن لا نهائياً. إنّها لا تزال تنظر إليه مُراقبة غفوته. كان الإحساس الرّهيب والمثمل مع ذلك، والذي يشعر به وهو معروض بهذه الشّاكلة أمام نظرتها، بلا دفاع، عيناه معصوبتان بشكل من الأشكال، يشمل جسده بما يُشبه دغدغة كهربائية. هو يدري أنّه إن فتح عينيه فجأة، سيُلقي على الوجه المرعوب لمارغو بنظرة مليئة بالحنان، فتلفّها مثل معطف، لكنّه لم يتحرّك، حابساً نفَسَه الذي صار مُضطرباً ولاهثاً في صدره الشّديد الضّيق، وطفِق مُنتظراً. انتظر.

لم يحدث شيء. بدا له أنّها تميل أكثر عليه حتى أحسّ قريباً من وجهه بهذا العطر الخفيف، بشذى زهرة اللّيلك البليلة الذي يتعرّفه لأنّه سبق له أن استنشقه على شفتيها. غادر دمُه فجأة وجنتيه وسرى كموجة حارقة عبر جسده، لأنّ كفّاً كانت قد وُضعت على فمه وانزلقت ببطء على طول ذراعه على اللّحاف. إنّها مُداعبة هادئة ورقيقة شعر بانسيابها المغناطيسي، فانطلق دمه هادراً في

مُتابعتها. كان إحساسه اللّذيذ بهذا الحنان الأخرس مُثملاً ومُوتّراً في آن.

واصلت الكفّ الانزلاق على طول ذراعه ببطء، ببطء شديد. ألقى بنظرة خَفِية من بين جفنيه. لم يُميز في البداية سوى شعاع ضوء باهت بنفسجيّ، فدفقةِ نورٍ مصطخبة. ثمّ لمح بعد ذلك اللّحاف الذي يُغطّونه به والمبقّع بلون داكن، ثمّ في الأخير، الكفَّ التي تُداعب ذراعه وكأنّها قادمة من بعيد. رآها كأنّها في حمأة شفق، شُعاعاً ضئيلاً أبيضَ يتقدّم في شكل سحابة مُضيئة، ثم تتقهقر إلى الخلف. فرجَ جفنيه أكثر قليلاً. هو يُميز الآن أصابعها بوضوح، بيضاءَ ولامعةً كأنّها من خزف صينيّ. رأى أصابعها تقترب قليلاً مُنثنية ثمّ تتراجع بعد ذلك بكسل، لكن مُتأجّجة دائماً بحياة داخلية قوية. تتقدّم وتتراجع مثل هوائيات، وفي هذه اللّحظة ساوره انطباع بأنّ هذه الكفّ تملك حياة خاصّة بها. كانت تبدو في شكل قطّة تنكمش على الملابس، قطة صغيرة بيضاء تقترب بقوائم مُخملية هارّة بحبّ، وهو لن ينذهل من رؤية عيني هذه القطّة بعد حين. ثمّ أليست هذه حقّاً نظرةً برّاقة يراها تلمع في هذا الشّيء الأبيض الذي ينزلق على ذراعه؟ نعم، فذلك ليس سوى لمعان حُلية وبريقِ ذهب.

لكن الآن، وقد تقدّمت الكفّ من جديد، فإنّه يُميز بوضوح الحلية المكشوفة والمرتعشة في دملجها، واضحة. إنّها الحلية المرتعشة في دملجها، الحلية الملغزة والمكشوفة، ثُمانية الأضلاع وفي حجم قطعة نقدية. كفّ مارغو هي التي تُداعب ذراعه. حدته رغبة في أن يحمل إلى شفتيه هذه الكفّ الرّقيقة البيضاء الخالية من أيّ خاتم، فيقبّلها. لكنّه أحسّ بنفَس يعبر خدّه، فخمّن أنّ رأس مارغو قريب من رأسه. لم يعد يستحمل إبقاء جفنيه مُنكّسين. أشرق وجهه سعادة، وفتح عينيه بابتهاج على الوجه الذي انتفض وتقهقر مرعوباً.

عندئذ، وفي اللّحظة التي خرج فيها من الظّل هذا الوجهُ المائل على وجهه، فأغرق النّور قسماته المضطربة، تعرّف، مُرتعش الجسد، إليزابيث، أخت مارغو، إليزابيث الشّابة والدّاعية للاستغراب، فهل يكون حلماً؟ ثبّت بصره على هذا الوجه الذي اجتاحه احمرار مُفاجئ وحادَ بنظره. لا شكّ في ذلك، إنّها إليزابيث. لاحظ فجأة احتقارها الرّهيب له ونزل بصره إلى المعصم: الحلية توجد فيه حقّاً.

بدأ كلّ شيء يدور أمام ناظريه. أحسّ بنفس الشّعور الذي انتابه عندما كان قد فقد وعيه، لكنّه ضغط أسنانه

رافضاً أن يغيب عن الوجود. استُعرض كلّ شيء أمامه بسرعة البرق، مُكثّفاً فيما لا يزيد عن ثانية واحدة: الاندهاش وحالات احتقار مارغو وبسمة إليزابيث وهذه النّظرة التي تحطّ عليه مثل كفّ خفية. لا، لا، لا مجال لأيّ خطأ.

غير أنّ أملاً ضئيلاً نبع في داخله، مع ذلك. هذه الحلية قد تكون مارغو سلّمتها لها اليوم أو أمس أو بعد اللّقاء الذي جمع بينهما في الحديقة.

لكنّ إليزابيث كانت قد جعلت سلفاً تتوجّه له بالحديث. ومن المفروض أن أفكاره المحمومة كانت قد غيرت ملامحه، لأنّها سألته بقلق: «هل تشعر بالألم يا بوب؟» كم يتشابه صوتاهما! فكّر. فأجاب بآلية: «أجل، أجل... يعني لا... أنا أشعر أنّني في أحسن حال!».

ساد صمت جديد. كانت تعود إلى ذهنه باستمرار فكرةُ أنّ مارغو قد تكون ربّما سلّمتها الحلية. هو يعلم أنّ ذلك لا يُمكن أن يكون صحيحاً، لكن عليه أن يسألها:

- ما هذه الحلية؟

- آه! إنّها قطعة نقدية لجمهورية من جمهوريات أميركا لا أدري ما هي. العمّ روبير هو من أتانا بها.

- من تقصدين بأتانا بها؟

ثمّ حبس نفسه. من المفروض أن تكشف الأمر الآن.

- مارغو وأنا. كيتي لم ترغب فيها لسبب لا أعرفه.

شعر فجأة بعينيه تندَيَان. أشاح بوجهه احتياطاً، حتى لا ترى إليزابيث الدّمعة التي من المفروض أن تكون الآن على حافة جفنيه، الدّمعة التي لم يقدر على حبسها والتي جعلت تتدحرج ببطء على خدّه. أراد أن يتكلّم لكنّه خشي صوته؛ خشي أن ينكسر صوته تحت ثقل البكاء الصّاعد. صمتا كلاهما، مُسترقين النّظر إلى بعضهما البعض بقلق. نهضت إليزابيث في الأخير: «سأنصرف يا بوب. أتمنّى لك الشّفاء العاجل». أغمض عينيه وانغلق الباب مُصدياً بخفوت.

تزوبعت هذه الأفكار في ذهنه مثل تحليق سرب حمام مرعوب. اكتفى في هذه اللّحظة باستيعاب ضخامة سوء الفهم الكبير هذا. استولى عليه الخجل والغضب وهو يُفكّر في حماقته، وأحسّ في الأوان نفسه بألم فظيع. هو على بينة من أن مارغو قد ضاعت منه الآن إلى الأبد، لكنّه أحسّ أنّه يُحبّها حبّاً لا يتبدّل، حبّاً لم تُخالطه بعد، حتى الآن ربّما، تلك الحسرة المصحوبة بخيبة الأمل والتي عادة ما نشعر بها أمام أمر غير قابل للتحقّق.

أما إليزابيث، التي أبعد عنه صورتها بما يُشبه الغضب، فإنّ مُبالغتها في ردّ فعلها بالأمس مع احتدام شغفها المُتحكّم فيه بعناية اليوم، لَقيمتهما أقلّ بكثير من بسمة ترتسم على شفة مارغو أو مُداعبة تصدر عن كفّها، لو حدتها الرّغبة مرّة في أن تُلامسه بأنامل أصابعها. فلو كانت إليزابيث قد جعلته يتعرّف إليها في الحديقة لكان أحبّها، لأنّ افتتانه في تلك اللّحظة كان افتتان مُراهق، إن أمكن التّعبير بهذه الطّريقة، لكنّ اسم مارغو الآن قد انحفر بعمق في قلبه أثناء هذه الأحلام الألف التي رآها، فما عاد قادراً على مسحه من حياته.

انتبه أنّ الرّؤى أمست أقل وضوحاً أمام ناظريه وأنّ الأفكار التي كانت تتملكّه جعلت تتسرّب شيئاً فشيئاً مع دموعه. حاول، لكن سدى، أن يقوم بما كان اعتاد القيام به كلّ يوم، فرام خلال ساعات العزلة الطّويلة هذه أن يستحضر صورة مارغو، غير أنّ إليزابيث بعينيها العميقتين العامرتين رغبةً هي التي تنحشر باستمرار، مثل ظلّ، إلى جانبه. تغمّم كلّ شيء أمام عينيه فوجد نفسه مُضطرّاً إلى إجهاد نفسه كي يتذكّر كيف حصلت الأمور. ساوره الخجل عندما تذكّر أنّه ربض تحت نافذة مارغو وهو يصيح باسمها. ثمّ تولّته الشّفقة وهو يفكّر في إليزابيث

الشّقراء والصّامتة، والتي لم يُبادلها خلال هذه الأيام الأخيرة ولو كلمة، ولو نظرة، في حين أنّ اعترافه بجميلها كان أَوْلَى أن يلمع مثل حريق.

وفي صباح اليوم التّالي أتت مارغو لتجلس لحظة بالقرب من سريره. جعله حضورُها يهتزّ ارتعاشاً فما جرُؤ على النّظر في عينيها. ما الذي تقوله له؟ إنّه لا يكاد يسمع صوتها، لأنّ طنين صُدغيه يحجب الصّوت الذي يتحدّث إليه. وليس إلّا في لحظة مُغادرتها شمل شخصها في كليته بنظرة حنينية. إنّه لم يمحضها قطّ -هو يشعر بذلك- حبّاً أكثر من هذا الذي يُكنّه لها الآن.

أتت إليزابيث بدورها لزيارته ما بعد الزّوال. اتّسمت حركاتها بأُلفة رقيقة، فجعلت أحياناً تُلامس كفّه بكفّها وتتحدّث أحياناً بخفوت شديد بصوت محجوب قليلاً. راحت تُحدّثه بضرب من الاضطراب عن أمور مختلفة كما لو كانت تخشى أن تُفصح عن حقيقتها إن هي تحدّثت عن نفسها أو عنه. لم يعرف طبيعة شعوره نحوها، فبدا له مرّةً أنّه الشّفقة، وثانيةً أنّه اعتراف بجميل حبّها، لكنّه ظلّ عاجزاً عن أن يقول لها أيّ شيء. لم يكد يتجرّأ إلّا على النّظر إليها مخافة أن يكذب عليها.

شرعت الآن تأتي كلّ يوم وتبقى بجانبه وقتاً أطول.

يبدو أنّهما قد استعادا سكينتهما ما أن جعل النّور يُلقَى على السرّ الذي يجمع بينهما. غير أنّهما لم يجرؤا البتّة على الحديث عن تلك السّاعات التي عاشاها معاً في عتمة الحديقة.

وهكذا جلست إليزابيث يوماً، من جديد، قريباً من مقعده الطّويل. كانت الشّمس مُشرقة في الخارج في حين جعل الانعكاس الأخضر للقمّة المرتعشة للأشجار يصطخب على الجدران. كان شعرها يبدو في مثل هذه اللّحظات وكأنّه يُلقي بالالتهابات، فيبدو كسحابة من نار. أمّا جلدها فيبدو مُمتقعاً وشفّافاً، ويبدو جسدها كلّه وكأنّه مُضيء وأنّه هوائي، إن صحّ التّعبير. رأى بالقرب منه، وقد غطس رأسه في الوسادة التي امتدّ الظّل فوقها، وجهَها الباسم، وإن كان بدا له هكذا بعيداً للغاية، فلأنّه مشمول بالنّور الذي لم يعد يصل إليه هو. أنساه هذا المشهد كلّ ما مضى. وبينما مالت نحوه، وبدت عيناها كأنّهما تلجان عميقاً محجريهما وتُصبحان مثل مثقابين يخترقان رأسه، وفي حين انحنت عليه، أحاط جسدها بذراعيه وجلب وجهها بالقرب من وجهه وقبّل فمها الصّغير الرّطب. ارتعشت بقوة، غير أنّها لم تُقاوم. مرّرت أصابعها في شعر بوب سمتُها رقيق وحزين، ثم

وشوشت له بصوتٍ ذي نبرِ شجنٍ حانٍ: «لكنّك لا تُحبّ إلّا مارغو!». هذه النّبرة المستسلمة، وهذا الأمل المفقود الخالي من أي تمرّد، دلفا قلبَه. أصدى في روحه الاسم الذي يُبلبله إلى هذه الدّرجة، غير أنّه لم يشعر بنفسه قادراً على الكذب في هذه اللّحظة، فصمت.

قبّلها مرّة ثانية على شفتيها برقّة، يكاد يكون كمن يُقبّل أخته، فغادرت دون أن تنبس بكلمة.

كانت تلك هي المرّة الوحيدة التي تحدّثا فيها عن حبّهما. مرّت أيّام أُخر، ثمّ أنزلوا النّقةَ إلى الحديقة حيث كانت أولى الأوراق الميتة قد جعلت تتبعثر في الممر. كان المساء الذي بدأ يأتي مُسرعاً قد أخذ يدفع إلى التّفكير في الحزن الذي يُخيّم عادة على أيّام الخريف. بضعة أيام بعد ذلك وها هو ذا قد طفِق يمشي دون عون أحد، وإن بصعوبة. ذهب لآخر مرّة هذه السّنة ليجول تحت المهد المتعدّد الألوان للأشجار المتأرجحة في الرّيح والمتحدّثة بصوت أقوى وأخشن ممّا خلال تلك اللّيالي الصّيفية الثّلاث. راح المراهق يمشي حزيناً، فبدا له أنّ جداراً داكناً ينتصب لا مرئياً في ذلك المكان، وأنّ خلف هذا الجدار توجد طفولته الغارقة سلفاً في الشّفق، يرى أمامه بلداً مجهولاً وخطراً.

استأذن مساءً في الرّحيل. التهم بعينيه مرّة ثانية محيّا مارغو وكأنّه يُريد أن يطبع في خاطره إلى الأبد صورتها ثمّ وضع كفّه مُرتعشاً في كفّ إليزابيث التي ضغطتها بحيوية. ولم يزد على أن ألقى بنظرة خاطفة على كيتي وعلى الأصدقاء وأخته، لفرط ما كانت روحه عامرة بإحساسِ أنّه يُحبّ امرأة وتُحبّه أُخرى. كان شديد الامتقاع، تعبر جبهته ثنية عميقة مُزيحة عن محيّاه كلّ سمت طفولي. كان يبدو في هيئة رجل.

غير أنّه عندما رُبط الفرسان إلى العربة ورأى مارغو تعود أدراجها لا مُبالية كي تصعد السلَّم، ولمّا رأى عينَي إليزابيث تلمع ببريق مُبلّل وأنّها قد تشبّثت بالدرابزين، تملّكه إحساس قويّ بمقدار امتلاء المغامرة التي عاشها، فلم يقدر على منع نفسه من أن ينفجر باكياً كأنّه طفل.

كان القصر المشمول بأنواره يبتعد أكثر فأكثر خلال سحب النّقع الذي أثارته العربة، وجعلت الحديقة تتصاغر. تلاشى المشهد واختفى عن بصره أخيراً كلُّ ما عاشه فما عاد غير ذكرى عنيدة. أوصلته العربة بعد ساعتين المحطّةَ، فكان صباح اليوم التّالي في لندن.

بعد سنوات من ذلك كان قد فارق مرحلة الفتوة، لكنّ هذه المغامرة الأولى ظلّت حية فيه قادرة على تلويث

حياته من جديد ذات يوم. تزوّجت مارغو وإليزابيث لكنّه رفض دائماً أن يراهما من جديد، لأنّ فكرته عنهما والمرتبطة بهذه اللّحظات المبلبلة كانت غالباً ما تستولي عليه بحدّة تجعل حياته اللّاحقة كلّها لا تبدو له إلّا حلماً ووهماً مُقارنة مع حقيقة هذه الذّكرى. لقد أمسى أحد هؤلاء الرّجال الذين لا يستطيعون العثور على إغراء في الحبّ وفي النّساء. هو الذي كان مع ذلك، في مرحلة من حياته، قد أجاد الجمع بين هذين الإحساسين: أن يُحِبّ وأن يكون محبوباً. لم تستطع أيّ رغبة بعد ذلك أن تدفع به إلى البحث عمّا كان قد وقع قبل الأوان بين يديه المرتعشتين والقلقتين، لأنّه لم يكن حينئذ غير طفل. زار بلداناً عدّة، وغدا أحد هؤلاء الإنجليز النّزيهين والصّامتين، حتى ليعتبرهم كثير من النّاس بلا إحساس لأنّهم قليلو الكلام وتبقى نظرتهم باردة أمام وجوه النّساء وابتساماتهنّ. من يستطيع، حقّاً، أن يعتقد أنّهم يحملون في أعماقهم هذه الصّور التي يُثبّتون عليها نظراتهم باستمرار، محشورة في ثنايا قلبهم الذي يتحرّق لها بلهيب أبدي مثل شمعة أمام صورة للسّيدة العذراء؟

* * *

أنا الآن على بيّنة من أصل هذه الحكاية. ففي هذا

الكتاب الذي كنت أمسك به بين يدي ما بعد الزّوال كانت توجد بطاقة بريدية أرسلها لي صديق من كندا. إنّه إنجليزي شابّ تعرّفت إليه خلال سفري وقضيت معه أمسيات رائعة في الثّرثرة، فلم تكفّ عن الظّهور في قصصه -مُزوّقة بالألوان، وكأنّها مُحجّرة- ذكرى امرأتين شديدة الاتّصال بمرحلة من شبابه. لقد مرّ وقت طويل جدّاً عن لقائنا فنسيت ما دار بيننا من حديث، لكنّني اليوم، ما أن توصّلت بهذه البطاقة، حتى عادت هذه الذّكرى ممزوجة، كأنّني أراها في حلم، بكل أشكال مغامراتي الشّخصية، فحسبت أنّني قرأت حكايته في الكتاب الذي انزلق من بين كفّي، أو أنّني عثرت عليها في حلم من أحلامي.

لكن كم أظلَمَت الدّنيا الآن في الغرفة، وكم تبدو لي أنت بعيداً في عمق الشّفق! أنا لا أرى سوى شعاع لطيف وواهن في المكان الذي أُخمّن فيه وجهك، ولست أدري ما إن كنتَ تبسم أو أنّك حزين؛ ما إن كنت تتبسم لأنّني أفترض مغامرات غريبة عاشتها كائنات عرفتها معرفة عابرة، فأتخيّل لها قدراً كاملاً ثمّ أتركها بهدوء إلى مصيرها ومجال اهتمامها؛ أو إن كنت حزيناً لفكرة أنّ هذا الفتى قد أخطأ حبَّه وأنّه قد خرج بعد ساعة وإلى

الأبد من حديقة أحلامه اللّذيذة. أتَرى؟ فأنا لم أشأ أن تكون هذه الحكاية لا سوداء ولا حزينة، وإنّما أردت فقط أن أحدّثك عن مراهق فاجأه الحبّ؛ حبّه هو وحبّ شخص آخر. لكنّ الحكايات التي نقصّها في هذه اللّحظة الشّفقية تنتهج كلّها الممشى اللّطيف للحزن. فالشّفق ينشر عليها أقنعته ويصنع الحزنُ الذي يحمله المساء في ذاته فوقها سماء بلا نجم، فيتسرّب الظّل إليها شيئاً فشيئاً وتتحلّى عندئذ كلّ الكلمات التي تتضمّنها، لامعة وملوّنة، بنبر قوي وحادّ كما لو كانت قادمة من أعمق أعماق حياتنا.

التّوأم

(حكاية طريفة)

مكتبة
t.me/t_pdf

تفاجأتُ يوماً، في مكان ما من مدينةٍ بمنطقة ميدي أُفضّل عدم ذكر اسمها، عندما خرجت من زنقة ضيقة، فوجدتُني أمام بناية قديمة ذات جلال تعلوها منارتان مُتماثلتان حتى لتبدوان في الشّعاع الغسقي وكأنّ إحداهما هي ظلٌّ للأخرى. لم تكن هذه البناية كنيسةً ولا قصراً قديماً، وكان فيها أمرٌ ما دَيرِيّ، على الرغم من أنّها تجعلنا بأسوارها الواسعة والسّميكة نفكّر أيضاً في مُنشأة دُنيوية، لكن من نوع غير معلوم. استبدّ بي الفضول فاقتربت من مواطن ذي وجنتين مورّدتين وهو يتذوّق كأس خمرة لونها قَشّي على سطيحة مقهى صغير، وسألته بعد أن رفعت قبّعتي بأدب عن طبيعة هذه البناية الفخمة التي تنتصب فتعلو السّطوح الواطئة المنتهية بكوّات للإنارة. نظر الرّجل في وجهي مندهشاً ثمّ تبسّم مطولاً، مُستمتعاً، قبل أن يُجيبني: «ليس بمستطاعي أن أقول لك شيئاً

مؤكّداً؛ فمن الممكن أن يكون اسمها في السّجل مُختلفاً، لكن فيما يخصّنا دائماً ما سميناها، كما سُميت منذ القديم، "منزل الأختَين"، ربّما بسبب تماثل منارتيها، وربّما بسبب. . .»، وصمت مُتحكّماً في بسمة جديدة، كما لو كان يُريد بدءاً أن يتأكّد من أنّه قد أثار فضولي. لم يكن بإمكاني أن أقنَعَ بجوابٍ غير تامّ، فأجرينا إذاً محادثة وقبلتُ طواعية عرضَه بأن أتذوّق هذه الخمرة الحادّة والمذهّبة، بينما كان التّدبّبُ الدّقيق لقمّة المنارتين يبرقُ أمامنا في ضوء القمر المتنامي. استطبتُ الخمرَ وبدت لي مُسلّيةً حكايةُ الأختَين التّوأم المتشابهتين وغير المتشابهتين في آن، وهو يقصّها علي خلال تلك الأمسية الدّافئة. وأنا إذْ أسوقها هنا بإخلاص فإنّني لا أستطيع مع ذلك ضمان صحّتها. . .

حدث ذلك خلال المرحلة التي قضى فيها جيش الملك تيودوز فصل الشّتاء في عاصمة آكتين[1]. فبينما كانت عطالةٌ مُمتدّة تُعيد للجياد المتعبة وبرَها الحريريّ وكان الرّجال يسأمون، إذا بفارس الخيّالة، وهو رجل من لومبارديا اسمه هيريلونت، يقع في حبّ تاجرة حسناء تبيع

(1) Aquitaine، منطقة من جنوب غرب فرنسا. (المترجم)

البهارات والتّوابل في عمق ضاحية فقيرة. كان شغفه من القوة بحيث سارع للزواج من محبوبته على الرغم من وضاعة شروط عيشها، كي يستطيع تملّكها في أقرب وقت، فاستقرّ وإيّاها في قصر من ساحة السّوق. عاشا مُختفيين فيه مدّة طويلة، مُهتمّين بنفسيهما لا غير ناسيَين باقي الرّجالِ والملكِ والحرب. وإذ هما على تلك الحال يعيشان حبّهما ويقضيان لياليهما مُتعانقين، كان الزّمن يُواصل جريانه. شرع يهبّ هواءُ الجنوب الدّافئ مُكسّراً في طريقه جليد الوديان ومُنبتاً في المروج أزاهير الزّعفران والبنفسج. في ليلة واحدة تسربلت الأشجارُ بخضرة نامية وانبثقت أكاليل البراعم النّدية من الأغصان المتصلّبة بعدُ ببرودة الجليد. جعل فصل الرّبيع يصعَد من الأرض المنبعث بُخارُها، قادماً ومعه الحرب. أُوقظ العشيقان، ذات صباح جميل، بطرقات حادّة هزّت باب مسكنهما. إنّه مبعوث الملك وقد أتى الجنرالَ بأمر الاستعداد للرّحيل. دقّت الطّبول في الحيّ معلنة الحرب وصفّقت البيارق بابتهاج في الرّيح وسرعان ما صوّتت ساحة السّوق تحت حوافر الجياد المطهّمة والمُعدّة. انتشل هيريلونت نفسه من قُبل زوجته التي شملته بها طوال فصل الشّتاء، لأنّه مهما كان تأجّجُ حبّه، فإنّ حماسته وشغفه

الشّديدَين بالمعارك كانا أقوى منه. لم يتأثّر بدموع زوجته التي راحت تترجّاه أن يسمح لها بمرافقته، فتركها في المنزل الرّحب وانطلق نحو موريتانيا على رأس جيش جرّار. انتصر على العدوّ في سبع معارك، فكنس مساكن العرب وأحالها رماداً واجتثّ مُدنهم، دافعاً بغاراته إلى أن أدرك شاطئ البحر. وجد نفسه مُضطرّاً لاستئجار سفن شراعية ومراكب ذات مجاديف كي يبعث الغنائم إلى بلده، لشدّة ما كانت وفيرة. لم يسبق لنصر أن تحقّق بهذه السّرعة، ولا لحملة أن أدركت غايتها في هذا الوقت الوجيز. كان من الطّبيعي أن يُسلّم الملكُ كلّ البلد المفتوح، من شماله إلى جنوبه، إقطاعةً لجنديه الشّهم، مُكافأة له على صنيعه. وكان بإمكان هيريلونت الذي لم يسبق أن كان له مسكن آخر غير مخيمات الجنود، أن يخلد للراحة مُتنعّماً بحياة فخمة، غير أنّ هذا النّصر السّريع الذي حقّقه أثار حماسته أكثر ممّا هدّأها. ما عاد الجنرال يرغب في أن يكون تابع أحد أو شريكه، حتى ولو كان عاهلَه. بدا له أنّ التّاج الملكيّ وحده جدير بأن يُزيّن الجبين الأبيض لزوجته، فألّب إذاً خفية جنوده على الملك وهيّأ تمرّداً. لكنّ المؤامرة فشلت لأنّها سُرعان ما كُشفت. وهكذا وجد هيريلونت نفسه مُضطرّاً للجوء إلى

الجبل بعد أن انهزم بهذه الطّريقة قبل حتى أن تبدأ المعركة وأضحى محروماً كنسياً وتخلّى عنه فرسانه؛ لكنّ بدويين أغوتهم المكافأة السّمينة فتربّصوا به وقتلوه مستغلّين لحظة استغراقه في النّوم.

وفي اللّحظة التي اكتشف فيها رُماةُ الملك، على قشّ مزرعة، الجثمانَ الدّامي للمتمرّد فجرّدوه من حليه وملابسه قبل القذف به في مزبلة، كانت زوجته الجاهلة بالكارثة التي حلّت به، تلدُ في سريرهما الفخم توأماً عمّدهما القسّ شخصياً باسمَي هيلين وصوفيا وسط حضور جليلٍ مُعتبر. كانت نواقيس الكنيسة لا تزال تُصدي والمدعوون يقرعون كؤوسهم بابتهاج عندما أتى خبر التّمرّد وهزيمةِ هيريلونت، والذي سُرعان ما تلاه خبر آخر: سيُصادر الملك، وفقاً للعادة، منزل الثّائر ومتاعه. وجدت صاحبة الحانوت الجميلة نفسها إذاً، ما أن استيقظت، مُرغمة على العودة إلى شارعها الضّيق بالضّاحية، مُرتدية من جديد فستاناً رخيصاً من الكتّان، مصحوبة، فوق ذلك، أثناء عودتها إلى بؤسها، بصبيتَين وقلبٍ مليء خيبةً شديدةَ المرارة. بدأوا من جديد يُشاهدونها جالسة، منذ الصّباح وحتى المساء، على كرسيها الخشبيّ تبيع بهاراتها وحلوياتها كي يكون دخلها

في الغالب أقلّ بكثير ممّا تتلقّاه من استهزاء وسخرية. أطفأ الحزن في وقت وجيز بريق عينَيها وكسا شعرَها قبل الأوان لونٌ رماديّ. غير أنّ حيوية ابنتَيها وجمالهما المتفرّد سرعان ما عوّضاها عن أحزانها وبؤسها. كانتا معاً قد ورثتا من الجمال المشعّ لأمّهما، واشتدّ الشّبه بينهما في جسديهما كما في مزاجيهما، حتى أنّ الواحدة منهما كانت تبدو صورة كاملة للأخرى. لم يكن الأغراب وحدهم غيرَ قادرين على التّمييز بينهما، وإنّما أمّهما نفسها كانت تعتقد أحياناً أنّ هيلين هي صوفيا، وأحياناً أخرى أنّ هذه هي تلك، لفرط ما كان الشّبه بينهما تامّاً، فاضطرّت لوضع شريط على ذراع صوفيا حتى لا تخلطها بأختها، لأنّها كانت عاجزة عن تسمية من ترى وجهها فقط أو تسمع صوتها.

ومن سوء الحظّ أنّهما إن كانتا قد ورثتا عن أمّهما جمالها المدوّخ، فإنّ الأب بدوره كان قد ورّثهما عجرفته المتسلّطة وغير القابلة للتّرويض، حتى أنّ كلّاً منهما كانت تسعى إلى التفوُّق على الأخرى في كلّ شيء، وأنّ تكون المنتصرة حتى على كلّ رفقائهما. ومنذ السّن التي عادةً ما ينصرف فيها الأطفال للّعب بهنَاءَةٍ وخلوّ بالٍ، كان كلّ شيء قد غدا عندهما تَعِلّةً للتّنافس والغيرة. وعندما كان

رجل أجنبيّ، إعجاباً منه بنجابة الفتاتين، يضع خاتماً في إصبع إحداهما دون أن يُقدّم الهدية نفسها للأخرى، أو عندما يطول لفُّ لعبة هيلين (الدوّارة) أكثر من لفّ لعبة صوفيا، تكون الأمّ متأكّدة من أنّها ستعثر على من تعتبر نفسها مغبونة مطروحة أرضاً عاضّة قبضة يدها ضاربة بعنف الأرض برجليها. لم تكونا تتجاوزان عن أقلّ لفتة حنان وأدنى إطراء وأدقّ فوز تُحرزه إحداهما. عبثاً حاولت أمّهما الوقوف في وجه هذه الغيرة التي لا تنفكّ تُعرب عن نفسها في كلّ آن، لكنّها سُرعان ما لاحظت أنّ الإرث الأبويّ المشؤوم لم يكن يزداد إلّا تأجّجاً لدى المراهقتين. بيد أنّ عزاءً طفيفاً سُرعان ما أتى ليُعوّضها عن أحزانها؛ فبفضل هذا التّنافس المسترسل تحديداً، صارتا أمهر كلّ الفتيات اللائي في سنّهما وأكثرهنّ معرفة. ما كانت تشرع إحداهما في تعلّمه، كانت تنخرط الأخرى فوراً في دراسته مُتعجّلة تجاوز أختها. وبفضل مرونة عقليهما وجسديهما معاً، تمثّلت الفتاتان بسرعة الفنون الأكثر جدوى والأكثر جلباً للنّساء، من مثل غزل الكتّان وصبغ الأقمشة والرسم والرقص برشاقة وتلحين الأغاني وغنائها مصحوبة بعزف العود. وقد أقبلتا حتى على دراسة اللغة اللاتينية والهندسة والمعارف الفلسفية

السّامية التي كان يُدرّسهما إياها قسٌّ عجوز من دون مُقابل. وسرعان ما انعدم وجود ولو آنسة واحدة في آكيتين كلّها تُضارع ابنتي صاحبة الحانوت في سموهما وتربيتهما أو رشاقة ذهنيهما. ولم يكن سهلاً البتّة تفضيل هيلين على صوفيا لكثرة ما كانت الأختان مُتماثلتين في ذكائهما ولغتهما كما في شخصَيهما.

لكن، في نفس الوقت الذي كان يكبر فيه حبُّهما للفنون الجميلة ولمعرفة الأشياء الرّقيقة والمحبوبة التي تسم الرّوح كما الجسد بحساسية شفيفة، كان يتنامى لدى الفتاتين عدم رضا مؤلم بسبب الوضع الوضِيع لأمّهما. عندما كانتا تُغادران المُناقشات الأكاديمية، حيث تتنافسان في الكلام المنمّق مع الدّكاترة وكأنّهما تلعبان الكرةَ، أو عندما كانتا تُغادران -لا تزالان تسبحان في الموسيقى- حلقة الرّاقصين كي تلتحقا بالطّريق السّابحة في دخانها حيث تسهر أمّهما الشّعثاء في حانوتها، إلى ساعة متأخّرة، ربحاً لبعض المال ببيع كمشة بندق، كانتا تتضرّجان من بؤسهما المكين. كانتا تقضيان على الأرضية الصّلبة التي تتأكّل جسديهما العذريين جزءاً من ليلهما، مُلتهَمَتين بنار داخلية متأجّجة، فلا يغمض لهما جفن، لاعنتين هذا القدر الذي يُثقل عليهما بوطأته. ماذا؟ هما اللّتان تفوقان

النّساء النّبيلات كمالَ جسدٍ وذهناً، هما اللّتان كان أولى بهما أن تكون ملابسهما واسعة ومفصّلة من أقمشة رقيقة ومُزيّنة بالأحجار الكريمة، تنكفئان على نفسيهما في هذا السجن المظلم! هما اللّتان كانتا، مع ذلك، ابنتي جنرال كبير، أميرتين حتّى، بالدّم الذي يجري في عروقهما وبالحليب الذي رضعتاه، من بإمكانهما الأملَ في أن يطلبهما للزّواج؟ على الأكثر صانع براميل أو أسلحة. . . هما كانتا تحلمان بمساكن فخمة وبأطقُم خدم وبالثّروات وبالسّلطة. وعندما كانتا تريان مُصادفةً سيدة نبيلة مُرتدية فراء ثمينة وهي تتأرجح برقّة في عربتها، مارّة وسط خدمها وحرسها، كانت وجناتهما تصير ببياض أسنانهما. كانت عجرفة أبيهما الرّهيبة تغلي في دمهما فلا تُفكّران بياض يومهما وسواد ليلهما إلّا في وسيلة للخلاص من هذا الوجود الذي لا يليق بهما.

وسُرعان ما طرأ حدَثٌ يسهلُ تفسيرُه على الرغم من أنّه لم يكن متوقّعاً. في صباح جميل وجدت صوفيا عندما أفاقت من نومها فراش أختها بجانبها فارغاً. كانت هيلين قد اختفت ليلاً بطريقة مُلغزة. خشيت الأمّ المحموقة أن يكون أحد الرجال النبلاء قد اختطف بالقوة ابنتها ليلاً، لأنّ الجمال الخارق للعادة الذي تتمتّع به ابنتاها كان قد

جعل رؤوس شباب عديدين من المدينة تلتفت إليهما. عَدَت مُسرعة، ملابسها غير مرتّبة عليها، إلى الوالي الذي يحكم المدينة باسم الملك وترجّته أن يُلقي القبض على المجرم. وعدها بذلك. لكن، ما أن حلّ اليوم التّالي حتى بدأ النّاس يُردّدون، أمام حيرة الأمّ، إشاعةً تتّهم بطريقة قاطعة المراهقةَ غير القابلة للتّرويض بأنّها قد فرّت بصحبة شابّ نبيل بعد أن نهب خزائن أبيه ودواليبه، حبّاً في الفتاة. وفي الأسبوع الموالي أعقب الضّجيجَ الأوّل صخبٌ جديد أكثر إزعاجاً: حكى المسافرون القادمون من المدينة التي التجأت إليها الفتاة عن الفخامة التي تحيا فيها مع عشيقها، مُحاطة بالخدم والحشم والحيوانات النّادرة، مُرتدية أبهى المعاطف والأقمشة اللمّاعة، مُثيرة ضجّة كبرى وسط كلّ نساء المدينة الشّريفات. وكان هذا الخبر الحزين لا يزال موضوعَ كلّ الأحاديث عندما أقبل خبر آخر يفوق سابقه في كارثيته: بعد أن تعبت هيلين من رفقة هذا الفتى الغرّ الذي كانت قد جرّدته من كلّ ما يملك، باعت جسدها الغضّ لخازن المدينة، العجوز المتقدّم في السّن، مُقابل أن تعيش معه حياة مُنعّمة جديدة، ثمّ سلبت بلا رحمة هذا الرّجل الذي كان معروفاً حتى تلك اللّحظة ببخله الشّديد. أسابيع بعد ذلك، وبعد

أن نتفت ريش هذا العاشق العاجزِ كما يُنتف ريش الدّجاجة، غيّرته بآخر جديدٍ انفصلت عنه بعد ذلك من أجل آخر أغنى وأوسع ثراءً. ما عاد يخفى على أحد أنّ هيلين كانت قد جعلت من جسدها تجارة تماماً كما كانت أمّها تتّخذ من البهارات تجارة لها. عبثاً جعلت الأرملة المسكينة تبعث رسالة بعد رسالة إلى ابنتها الضّائعة تلتمس منها أن لا تُلطّخ بهذه الطّريقة ذكرى أبيها. غير أنّ حدثاً جديداً طرأ كي يصل بعار الأمّ الشّقية إلى مداه: ولج المدينة، في يوم، موكبٌ جليل. مشت هيلين مسبوقة بخدم في ملابس بنفسجية ومتبوعة بالخيّالة، كأنّها أميرة، مُحاطة بكلاب فارسية وبقرود ذات أشكال غريبة؛ تقدّمت بائعة الهوى الشّابة، تُعادل في أُبّهتها سالفتَها القديمة، هيلين تلك التي كانت قد بلبلت الإمبراطوريات[1]، ومُزيّنة مثل ملكة سبأ أثناء دخولها القدس. انتشر الخبر بسرعة فغادر الصنّاع التقليديون مشاغلهم وترك الكتَبَة محلّاتهم، فهرول جمعٌ غفيرٌ مسارعاً للإحاطة بالموكب.

---

(1) هيلين (Hélène)، ابنة زيوس وليدا. هي أجمل امرأة في الكون، بحسب الأسطورة، لا تفوقها في جمالها سوى أفروديت. كانت زوجة مينيلاس، ملك أسبرطة، لكن الأمير الطّروادي باريس اختطفها منه فكان ذلك سبباً في اندلاع حرب طروادة بين الإغريق والطرواديين سنة 1180 قبل الميلاد. (المترجم)

توقّفت الفرقة الحيوية المشكّلة من الخيّالة والخدم في ساحة السّوق واصطفّوا باحترام كي يستقبلوا بائعة الهوى الشّابة. انفتحت ستارة عربتها فتقدّمت مرفوعة الهامة نحو باب هذا القصر نفسه الذي كان قديماً في ملكية أبيها، وقد أعاد شراءه من أجلها، من مُمتلكات الخزينة الملكية، أحدُ عشّاقها الرّائعين مُقابل ثلاث ليالٍ من الحبّ. استقرّت -كأنّها تستولي على إقطاعَةٍ- في هذه الغرفة ذات السّرير الفاره حيث كانت أمّها قد وضعتها مشمولة بالعزّ. وسُرعان ما امتلأت كلّ الغرف التي ظلّت مُهملة سنوات، بتماثيل وثنية نفيسة. عوّضت أدراجٌ من الرّخام سابقاتها الخشبية وتغشّت الأرضية بالبلاطات والفسيفساء الأنيقة ونُجّدت الجدران بما يُشبه لبلاباً مُتعدّد الألوان وبجداريات ألوانها دافئة مُجسِّدةً عدداً من الصّور ومن الحكايات. أصدَت الأواني الذّهبية وسط موسيقى المآدب المتواصلة، لأنّ هيلين المتمرّسة في كلّ الفنون والمثيرة للغواية بطراوة جسدها وبذهنها، سرعان ما غدت خبيرةً في كلّ ألاعيب الحبّ وبائعةَ هوى واسعة الثّراء. سارع المسيحيون والوثنيون أو الزّنادقة من المدن المجاورة وحتى من الخارج لينعموا ولو مرّة واحدة بمباهج المومس الفاتنة. وبما أنّ ميلها السلطوي لم يكن

أقلّ احتداداً من عنجهية أبيها، فإنّها كانت تُجيد إبقاء عشّاقها مُتوتّرين، عاملة بلا شفقة على تركِ شغفهم مُضطرماً إلى أن تسلبهم كلّ ما لديهم. ابن الملك نفسُه التجأ إلى المدينين عندما غادر بعد أسبوعٍ من القصف ذراعي هيلين ومسكنها، محزوناً ولا يزال مع ذلك شديد التعلُّق بها.

لم يكن غريباً البتّة أن يُغضب صلفٌ مثل هذا نساء المدينة الشّريفات، خاصّة المسنّات منهنّ. علا صوت القساوسة في الكنائس بإدانة الفاسقة، وأشار إليها النمّامون بأيديهم غاضبين في ساحة السّوق، كما أنّ الحجارة حلّقت أكثر من مرّة في اتّجاه نوافذها ليلاً. لكن مهما كانت حدّة غضب النّاس الخيّرين والزوجات المهمَلات والأرامل الوحدانيات، ومهما كانت شكاوى وإدانات النّساء الأخريات اللائي يعشن حياةَ ضنك، المجرّباتِ والمسنّات، ضدّ هذه اللّبؤة الوقحة التي أقبلت لتصطاد على أرضهنّ، فإنّه لم يكن من بينهنّ من يصل غلُّها إلى غلّ أختها صوفيا. لم تكن الحياة المتهتّكة التي تحياها هيلين هي ما كان يُمزّق قلبها، وإنّما الحسرةُ على أن تكون بقيت صمّاء أمام ما كان اقترحه عليها هذا الرجل النبيل الذي تبعته أختُها، وأن تكون قد فرّطت في

كلّ ما صارت هيلين تملكه الآن وما تغبطها عليه في سرّها، أيْ سلطانُها على الرّجال وحياتها الباذخة. ذلك أنّها استمرّت في العيش في كنف غرفة مُثلّجة حيث تأتي شكاوى الرّيح ليلاً لتنضاف إلى شكاوى أمّها. صحيح أنّ أُختها أرسلت لها، إشباعاً لغرورها، ملابس فاخرة، لكنّ اعتزاز صوفيا بنفسها رفض لها أن تقبل صدقة مثل هذه. وهي ما عاد زهوُها بنفسها يقنع بأن تمشي في آثار هيلين، أختِها الأكثر جرأة منها، وأن تُنازعها عُشّاقها، كما كانت تُنازعها قديماً قطع الخبز المتبّلة. هي تشعر أنّ على نصرها أن يكون شاملاً. ولفرط تفكيرها ليلاً ونهاراً في وسيلة تمسح بها شهرة أختها ووجودها التفضيلي، انتبهت من خلال إقبال الرّجال عليها والذي أضحى أكثر إلحاحاً فأكثر أنّ متاعها الوحيد، عذريتَها، شرفَها، هو في الآن نفسه طُعم ثمين وضمانٌ يُمكن للمرأة الذكية أن تُعلي من شأن قيمته. ارتأت إذاً أن تحتفظ تحديداً بما كانت أختها قد فرّطت فيه، وأن تعرض أمام الجميع فضيلتها تماماً كما كانت أختها تعرض جسدها الغضّ. وإن كانت هيلين قد أضحت شهيرة بحياتها الباذخة فإنّها ستغدو من جانبها شهيرة بحياتها الذّليلة والمتقشّفة. وفي صباح دُسّ خبرٌ مُدهش طعاماً لفضول العامّة: صوفيا الخجلة من سلوك

هيلين الفضائحي، أختها التّوأم، وتكفيراً عن ذنبها، انسحبت من العالم والتحقت بدار الرّهبان مُنضمّة إلى هذا النّظام الورع الذي يسهر في التّكية بإقدام لا يعرف التّعب على علاج المرضى، خصوصاً منهم الميؤوس من شفائهم. جعل العشّاق الذين فاجأهم سلوكها في نتف شعرهم من الحسرة وهم يرون هذه الجوهرة الصّافية تُفلت من بين أيديهم. لكن المتديّنين، على العكس من ذلك، استغلّوا بلهفة هذه المناسبة الخارقة للعادة فوضعوا مُقابل حياة الفسق هذه الصّورةَ الجميلة للتعبُّد وراحوا ينشرون الخبر على مدى واسع، حتى أنّه ما صار من اهتمام في كل آكتين سوى بصوفيا، هذه الفتاة الخيّرة التي تسهر ليل نهار على المتورّمين والمصابين بالأمراض الصّدرية، ولا تخشى مساعدة المجذومين. جعلت النّساء يُؤتين حركة الصّليب ويُثنِينَ رُكَبَهنّ عندما تمرّ في الطّريق، عيناها مُنكّستان تحت غطاء رأسها الأبيض، وغمرها القسّ بأمداحه، مُقدّماً إيّاها على أنّها أحسن مثال على الفضيلة النّسائية، وصار الأطفال يُحبّونها وكأنّها نجمة مذهلة. غضبت هيلين غضباً شديداً -وهو ما لا نكاد نشكّ فيه!- من أن ترى فجأة أنّها لم تعد مدار اهتمام المدينة كلّها، لأنّ الأنظار لم تعد موجّهة إلّا إلى هذه البيضاء التي تُقدّم

نفسها نموذجاً للفداء والتّضحية، مُكرّسةً حياتها للرّب رعباً من الخطيئة، منطلقة في سماء الإذلال مثل يمامة.

لمعت نجمتان -ديوسكوريان[1] غريبان- فوق البلد الذي ظلّ مُندهشاً خلال الأشهر الموالية من الإشباع المتماثل الذي حصل لدى المتدينين كما لدى المذنبين. ذلك أنّ هيلين كانت توفّر لتابعيها لذّةً في كلّ حين، بينما كان في وُسع الآخرين تشكيل أرواحهم على نموذج الفضيلة الصّارخ الذي وفّرته لهم صوفيا؛ فكانت تلك رّبما هي المرّة الأولى -في هذه المدينة الآكتينية، ومنذ أن نشأ الكون- التي صار ممكناً فيها، بفضل هذا الصّراع الغريب، أن نميّز بهذا الوضوح كلّه مملكة الرّب على الأرض من مملكة عدوّه. من كان يُحبّ الطُّهرَ اصطفّ إلى جانب القدّيسة ومن ابتغى المتع الحسية ارتمى في أحضان أختها المعيبة، في حين تبقى في قلب كل رجل بضعةُ ممرّاتِ عُبورٍ مُلغزة تصل الخير بالشّر والجسد بالرّوح. اتّضح بسرعة أنّ هذا الخلاف الذي اتّخذ منحى

(1) Dioscures، لقبٌ يُطلق في الميثولوجيا الإغريقية على كاستور (Castor) وبولوكس (Pollux)، ابنَي ليدا المذكورين في الإلياذة واللّذين يرمزان للشّباب والفتوّة والقدرة على حمل السلاح. (المترجم)

غير منتظر كان يُهدّد سلام الأرواح. وبالفعل، فإنّ الأختين التّوأم استمرّتا في التّشابه وكأنّهما قطرتا ماء رغم اختلاف سلوكيهما -نفس العيون ونفس القدّ ونفس الابتسامة ونفس الجاذبية- فكان من الطّبيعي أن يزرع هذا التّشابُه البلبلة والشّغف في قلوب الرّجال. من كان يخرج في الصّباح الباكر من بيت هيلين بعد قضاء ساعات مُضطرمة في أحضانها، بخطوات سريعة، قاصداً الحمّام ليُطهّر روحه، كان يشرع فجأة في فرك عينيه باندهاش كما لو كان في حضرة جنّي؛ ألا يكون قد رأى في هذه المترهبنة المبتدئة الجميلة ذات الفستان الرمادي المتواضع، وهي تدفع في حديقة الدّير عربة عجوز مشلول، وتمسح بلا تقزّز فمه المُلعِبَ بحركة رقيقة ومؤثّرة؛ ألا يكون قد رأى فيها تلك التي غادرها لتوه، تاركاً إيّاها مضطرمة وعارية على سرير التهتُّك؟ فيُثبّت بصره فيها مُنشدهاً: أجل، هما نفس الشّفتين وهي أيضاً نفس الحركات الرّشيقة والرّقيقة، على الرغم من أنّ حركاتها لا توقد في الرّجال رغبةً حسّيةً وإنّما يصدر عنها شعور يطفح طُهراً ورفعة. وبالموازاة مع إمعان الرّجل النّظر فيها تبرقُ عيناه كما لو كانتا تبغيان سبر ملبَسها الخشن الرّمادي الذي يبدو له وكأنّ الجسد المعروف

للمتهتّكة يُصدر له من خلفه إشارات. كما أنّ الأشخاص الذين كانوا لتوهم في زيارة للرّاهبة الجديدة، ويلتقون مُصادفة في زاوية من الشارع هيلينَ في كاملِ زينتها، يبرز جيدها وحنجرتها ببشاعة من ملابسها، ذاهبةً لعشاءٍ، مُحاطةً بالعشّاق وبالخدم، كانوا يقعون فريسةَ وهمٍ من الصّنف نفسه. ورغم أنّهم كانوا يُردّدون في خاطرهم أنّ هذه هيلين الفاسقة وليست صوفيا مُتحولةً فجأة بهذه الطّريقة الغريبة، فإنّ ذلك لم يكن يمنعهم من أن يُفكّروا في عُري الرّاهبة مُرتكبين بذلك إثماً حتى أثناء صلواتهم. هكذا كانت تتنقّل أذهان هؤلاء وأولئك بلا يقين من هيلين إلى صوفيا فتضيعُ حتى لأنّ حواسّهم كانت تمشي في أثر رغباتهم فيحلمون بالعذراء وهم بالقرب من المومس وينظرون بعين ملؤها الرّغبة إلى المتعبّدة السّامرية. لقد وسمَ الخالِقُ حقّاً الرّجال بطبيعة مُزعجة: إنّهم دائماً ما يطلبون من النّساء عكس ما يُقدّمنه لهم؛ إن سلّمن أنفسهنّ لهم بسهولة لا يعترفون لهنّ بذلك إلّا لماماً ويدّعون أنّهم يُقدّرون الفضيلة، بينما هم، على العكس من ذلك، يتحرّقون شوقاً لسلب أيّ امرأة براءتَها إن سعت إلى الحفاظ عليها. إنّ صراع الرّغبة الأبدي الكامن في الرّجل والذي يُواجه فيه الجسدُ الرّوحَ، لا يهدأ أبداً. وهذه

المرّة أيضاً، كان شيطان مُخاتل قد زاد الوضعية تعقيداً؛ ذلك أنّ هيلين وصوفيا، الفاسقة والقدّيسة، كانتا من شدّة الشّبه حتى أنّ لا أحدَ عاد يعرف تحديداً إلى من منهما يتحرّق رغبةً. وهكذا جعل النّاس يرون باستمرار فتيان المدينة الصّعاليك عند مُحيط التّكية كما في الكباريهات، وراح الأغنياء مُشايِعُو اللّذة يحبّون أن يروا المومس، في حميميتها، وهي ترتدي ملابس الرّاهبة، حتى يوهموا أنفسهم أنّهم قد تملّكوا صوفيا المتمنّعة. شاركت المدينة كلّها، لا بل البلدُ كلّه في هذه اللّعبة العبثية والآسرة في آن، فلم يستطع لا صوت القسّ ولا تهديد السّلطة أن يطمس هذه الفضيحة التي ما انفكّت تتجدّد كلّ يوم.

لم تكتفِ الأختان المتعجرفتان أن تكون إحداهما غنية والأخرى أكبرَ فاضلات المدينة، محبوبتين معاً ومُقدّرتين، وإنّما جعلتا تتأكّلان من الدّاخل، باحثتين عمّا يُمكن أن تُسبّبه إحداهما للأخرى من إزعاج. عضّت صوفيا شفتيها غيظاً عندما علمت بالمحاكاة الفاحشة التي سفّهت بها هيلين تفانيها في خدمة العجزة، وأفرغت هيلين غلّها بضربات سوط كالتها لخدمها عندما أقبلوا يحكون لها كيف أنّ الحُجّاج الأجانب يسجدون أمام أختها وتُقبّل نساءٌ آثارَ خطوها على التّراب. وبقدر ما

كانت هاتان المخلوقتان تُضمران الشرّ لبعضهما بعضاً، ويتضاعفُ عنفُ كراهيتهما المتبادلة، كانتا تزدادان تظاهراً بشفقة كلّ منهما على الأخرى. كانت هيلين تشكو سلوكَ أختها، على المائدة، بصوت رقيق مُظهرةً كيف أنّها تُضحّي بشبابها الفاتن من أجل شيوخ ملتهبي المفاصل مشلولين، منذورين رغم علاجاتها إلى الموت المحتوم. وكانت صوفيا، من جهتها، تُنهي صلاتها كلّ مساء بترتيل دعاء خاصّ من أجل الخطّاءات المسكينات اللائي اشتدّ بهنّ الحمق حتى أنّهنّ فضّلن رغبات لا طائل من ورائها وعابرة على الرّاحة القصوى التي بإمكانهنّ تحصيلها لو اخترن حياة تعبّدية خيّرة. لكنّهما عندما رأتا معاً أنّ الرّسائل والدّعوات التي كانتا تتبادلانها من أجل تغيير نمط عيش كلّ منهما لم تنفع واستمرّتا كلتاهما في نهج السّيرة عينِها، راحتا تتقرّبان من بعضهما شيئاً فشيئاً مثل مُصارعَين يُعدّان بحركاتهما كما بنظراتهما، دون أن يظهر عليهما شيء من ذلك، الضّربةَ القاضية لطرح الخصم أرضاً. جعلتا تتبادلان الزّيارات باستمرار وتُبدي كلّ منهما عطفها على الأخرى، بيد أنّهما كانتا تُضمران الرّغبة في أن تُصيب إحداهما الأخرى بأكبر قدر من السّوء.

حلّت صوفيا المتعبّدة المتعجرفة، ذاك المساء، ببيت أختها بعد الصّلاة المسائية، كما جرت عادتها بذلك، كي تُقدّم لها مواعظ جديدة. صوّرت مرّة أُخرى وبإسهاب للفاسقة التي جعلت تفقد من صبرها كم هي مُخطئةٌ إذ تجعل من هذا الجسد الذي منحها الله إياه مصدراً للهلاك. كانت هيلين تُصغي لأختها يتوزّعها الغضب والتبسُّم، وهي تعرضُ تحديداً هذا الجسد لعناية المُطيّبِينَ استعداداً لتجارتها الآثمة، مُتسائلة ما إن كانت سترمي هذه الواعظةَ المزعجةَ بكلام ساخر جارح أو حتى أن تستقدم شابَّين أو ثلاثة لترهيب بَصَر أختها. في هذه اللّحظة راودت ذهنها فكرة أصيلة، شيطانية حقّاً، شبيهة بذُبابة طنّانة؛ فكرة في منتهى الفظاظة والخطورة حتى أنّها وجدت صعوبة في قمع قهقهة راودتها. غيّرت الوقحة موقفها على الفور، وصرفت الخادمات والمدلّكات، وما أن وجدت نفسها وحيدة مع صوفيا حتى اتّخذت حالَ ندمٍ كي تُقنّع التّعبير الماكر الذي كان مُنعكساً في عينيها. صوفيا لا يُمكنها للأسف أن تعرف -قالت بمهارة من اعتادت على المراوغة- أيَّ تبكيت للضّمير تُسبّبه لها أحياناً حياةُ التهتّك الخرقاء التي وجدت نفسها غارقة في يمّها! وكم مرّة حصل لها أن أحسّت بالقرف من رغبات

الرّجال الحيوانية! وقد سبق لها أن وعدت نفسها بأن تُقاوم، انطلاقاً من تلك اللّحظة، وأن تحيا حياةً بسيطة وشريفة! لكنّها شعرت مع ذلك أن لا جدوى من أيّ مُقاومة! فهنّأت أختها على امتلاكها لروح قوية فلم تقع مثلها في غواية الجسد! ومن حسن حظّها أنّها تجهل قوة إغواء الرّجال الذين تعجز عن مُقاومتهم أيُّ امرأة تُراوَد عن نفسها! لم تشتبه صوفيا المباركة في العنف الذي كان يتّسم به إغراء هيلين، بل كان في هذا العنف حتى بعض الرقّة التي لم يكن بدٌّ من الميل إليها!

اندهشت صوفيا من هذا الاعتراف الذي لم يكن لها أملٌ فيه، فلم تستطع تصديقه وهو يَصدُرُ من فم أختها النّهمة إلى الرّبح المزجيّ واللّذة، فالتجأت إلى فصاحتها مُستنجدة بها. لقد مسّ إذاً في الأخير شُعاعٌ ربّاني خيِّر هيلينَ -هكذا بدأت صوفيا خُطبتها- لأنّ الشعور بالطابع الرهيب للخطيئة هو بداية التوبة. بيد أنّ الخطأ والشك لا يزالان كامنَين في روح هيلين، ما دامت تُنكر أنّ بإمكان إرادة قوية أن تهزم هجمة الرّغبة. إنّ الرّغبة في فعل الخير عندما تسكن قلباً وتتمكّن منه، لهي قادرة على الفوز على كل الغوايات، والتّاريخ يُقدّم على ذلك أمثلة بلا عدّ، لدى الوثنيين كما لدى المسيحيين. لكنّ هيلين حرّكت رأسها

بألم. يا للحسرة! قالت آنّةُ، فهي نفسها سبق لها أن قرأت تلك الحكاية البديعة التي تقصّ هذا الصّراع البطوليّ ضدّ شيطان الحسّية! لكن الرّجال هم من كانوا المنتصرين؛ إنّ الرّب لم يمنحهم قوة جسدية أكبر فحسب، وإنّما وهبهم، فوق ذلك، روحاً أجودَ واختارهم كي يكونوا الفائزين في هذه المعركة. لا يُمكن أبداً لامرأة ضعيفة -وتنهّدت بصوت مرتفع أثناء تلفّظها بهذه الكلمات- أن تُبطل أفاعيل الذّكور وغواياتهم. وهي لا تعرف مثالاً واحداً لامرأة تمكّنت منها الإثارة واستطاعت مع ذلك أن تُقاوم ضغط حبِّ أحدٍ من الرّجال.

- كيف أمكنك الحديث بهذه الطّريقة! صاحت صوفيا، مجروحة في كبريائها الزّائدة عن الحدّ. ألست أنا نفسي الدّليل على أنّ الإرادة الصّارمة بإمكانها هزم الشّهيات الحيوانية للرّجال؟ إنّ رهطهم لَيهجم عليّ صباح مساء ويُطاردني حتى في التّكية، وعندما أرتاد سريري لأنام أعثر فيه على رسائل تحوي اقتراحات مُقزّزة. لكن لا أحدَ رآني مع ذلك أشمل أحدهم أبداً ولو بنظرة، لأنّ إراداتي تحميني ضدّ الغواية. إنّ ما تقولينه إذاً لخاطئ؛ فعندما تُريد امرأة أن تُدافع حقّاً عن نفسها فإنّها تستطيع ذلك حتماً، وأنا نفسي أُقدّم دليلاً صارخاً على هذا.

- أنا أعرف حقّ المعرفة أنّكِ لم يسبق لك أن وقعتِ، قالت هيلين مُتنهّدة بنفاق وهي تُلقي على أختها نظرة مُترعة ذُلّاً كذِباً. لكنّك ما نجحتِ في ذلك إلّا لأنّ الحظّ حالفك فكنت مُحصّنة بمسوحك وبالمهمّة الصّارمة التي تتجشّمينها. فأنت مُحاطة من كلّ جانب بالمتديِّنات المتعبِّدات، ورابضةٌ في منجاكِ خلف أسوار دَيرِك. أنت لست وحيدة وبلا حماية مثلي. وهكذا، فعليك أن لا تعتقدي أنّك مدينة بطهارتك لصرامتك وحدها، لأنّني متأكّدة أنّك أنت أيضاً يا صوفيا، إن وجدت نفسك وجهاً لوجه مع رجل شابّ، لن تكون لديكِ القوّة ولا الرّغبة في أن تُقاومي، وستستسلمين له كما تفعل النّساء أجمعين!

- أبداً! أنا لست ممّن يستسلمن! عقّبت المتغطرسة. أنا قوية في مواجهة كلّ المحن، دون التجاءٍ إلى المسوح، وبفضل إرادتي لا غير.

كان ذلك تحديداً ما أرادت هيلين جعل صوفيا تتلفّظ به. وجلباً للسّاذجَةِ، شيئاً فشيئاً، نحو الفخّ الذي كانت تنصبه لها، ما انفكّت تُلقي بظلال من الشكّ على استطاعتِها المقاومة، حتى تأخذ صوفيا من تلقاء نفسها في الإلحاح على الخضوع لاختبار حاسم. وصوفيا تشتهي هذا الاختبار بل تُلحّ عليه حتى، كي تُثبت لأختها

المبالِغة في جبنها أنّها مدينة بفضيلتها إلى قوّة روحها وحدَها، وليس إلى أيّ حماية أُخرى مُحتملة. راحت هيلين، لحظتها، تتظاهر بأنّها تُفكّر، بينما كان تعجّلها القبيح يُخفق قلبها، وأجابت في الأخير:

- اسمعي يا صوفيا، أعتقد أنّني وجدت الحلّ! سأكون غداً مساءً في انتظار سيلفاندر، أجملِ شباب البلد، لم يسبق أبداً لأيّ امرأة أن رفضت له شيئاً طلبه منها، وهو مع ذلك يشتهيني أكثر ممّا يشتهي باقي النّساء. سيجتاز أربعاً وعشرين ميلاً على صهوة فرسه لما يكنّه لي من حبّ، ومن المنتظر أن يأتيني بسبع ليرات من الذّهب الخالص، من ضمن هدايا أُخرى، بغاية واحدة، هي أن يحظى بقضاء ليلة واحدة معي. بيد أنّه لو أتاني فارغ اليدين ما صرفتُه، وإن اقتضت الحال سأؤدّي المبلغ ذاته كي أنعمَ به، لجماله الفتّان وتميّزه عن باقي الرّجال. لقد صنعنا اللّه مُتشابهتَين في وجهينا وقدّينا وحديثنا، حتى أنّك لو ارتديت ملابسي لاعتقد بسهولة أنّك أنا. انتظري إذاً غداً سيلفاندر بدلاً منّي وتناولي عشاءك معه. فإن همّ بكِ، مُعتقداً أنّني أنا من بصحبته، التجئي لكلّ الأعذار لرفض الخضوع له. سأختبئ في حجرة مُجاورة وسأرى إن كنت قادرة على مقاومته حتى منتصف اللّيل. لكنّني

أطلب منك مرّة ثانية، أختاه، أنّ تكوني في كامل انتباهك، لأنّ قدرته على الإغواء كبيرة، وأكبر منها ضعفُ قلبنا. إنّني لأخشى أن تقعي ضحيةَ غواية غير مُنتظرة، بسبب افتقادك للتّجربة. وأعتقد أيضاً أنّك ستُحسنين صُنعاً لو تخلّيت عن هذه اللّعبة التي تكتسي هذا القدر كلّه من الخطورة!

كانت الماكرة، وهي تدفع أختها وتُثنيها هكذا في الأوان نفسه، تُلقي بالزّيت على نار عجرفتها. تباهت صوفيا بأنّها ستنجح بسهولة في امتحان يسيرٍ كهذا وأنّها ستبقى سيّدة حواسّها ليس فقط إلى أن يحلّ منتصف اللّيل، وإنّما حتى الفجر. غير أنّها التمست مع ذلك السّماح لها بحمل خنجر تُدافع به عن نفسها في حال تجرّأ مُرافقها ورام إرغامها على مُطارحته الفراش.

عندما تلفّظت صوفيا بهذا الكلام المتباهي، وقعت هيلين على ركبتي أختها وكأنّها تحت وقع الإعجاب، بينما هي في حقيقتها تسعى إلى إخفاء فرحها الذي يعكسه بريقُ عينيها. توافقتا إذاً على أن تستقبل صوفيا المترهبنة المبتدئة سيلفاندر غداً مساء، وأقسمت هيلين من جهتها أنّها ستُغيّر من نهج حياتها إن أفلحت صوفيا في مسعاها. خفّت صوفيا للالتحاق برفيقاتها كي تجعل قوّتها في

تماسٌّ مُباشر مع الفضيلة التي عانقتها منذ سنوات، بمعية هؤلاء المنعزلات الرّائعات اللائي لم يكنّ يعشن إلّا من أجل تخفيف بؤس الآخرين وآلامهم. عالجت بتفانٍ مُضاعف المرضى المصابين بأدواء خطيرة حتى تزداد اقتناعاً -عندما ترى هذه الأجسادَ المنهارة والمعاقة- بهشاشة أشياء هذا العالم. وهذه الكائنات المنهارة والمنتهية، ألم تكن قد أحبّت في زمن مضى؟ ما حالُها الآن؟ لا شيء أكثر من مزقٍ بشرية، وعفَنٍ حَيّ!

بيد أنّ هيلين لم تبقَ مكتوفة اليدين؛ فبوصفها خبيرة في استدعاء إيروس، الإلهِ القُلَّبِ، والإبقاءِ عليه بجانبها، أعدّت في البداية، غدراً، برفقة رئيس طبّاخيها، صحوناً مُتبّلة بكلّ أنواع الأعشاب المنشّطة. أوحت له بأن يضع في المعجّنات مسكاً وزيوتاً مُثيرة للرّغبة وفلفلاً حادّاً، ثمّ أثقلت الخمرةَ بنبات ذي خصائص مُخدّرة وأخرى خبيثة يكون لها الوقعُ السّريع على الحواس فتفتر. كما أنّها لم تنسَ أيضاً الموسيقى، ملِكةَ مُيسّري اللّذة، والتي تنساب مثل ريح دافئة إلى الرّوح العطشى للمتعة. أقعدت في الغرفة المجاورة عازفي نايات وضاربي دفوف هفهافة، لا يراهم أحد، فصارت أنغامهم أشدّ خطورة على القلوب الغافلة. وبعد أنّ أدفأت بهذه الشّاكلة قُرن الشّيطان،

قعدت منتظرة ساعة المعركة نافدة الصّبر. ولمّا حضرت مساءً صوفيا المترهبنة الجديدة المتعجرفة، ممتقعة من الأرق ومتوتّرة من اقتراب خطر محدِق كانت هي نفسُها باعثَه، أمسكت بها فرقة من الخادمات الشّابات ما أن أضحت على العتبة وقدنها، في دهشتها، نحو حمّام من عصارات العِطريات. جرّدن الرّاهبة المتضرّجة من معطفها الرّماديّ الخشن وفركن ذراعيها وفخذيها وظهرها بمساحيق الورود وبمراهم مُعطّرة، برفق شديد وبفظاظة، في آن، حتى جعل دمها ينقر شراييها. فجأة جعل ماء بارد حيناً وحارق حيناً يسيل على جلدها المرتعش، ثمّ مسحت أيادٍ سريعةٌ جسدها الملتهبَ بالزّيت الرّقيق للنرجس ودلّكت جسدها الباهر وفركته بقطعة من وبر القطّ بهمّة حتى أنّ شرارات مُزرقّة انبعثت من زغب الوبر. في كلمة، خصّت الخادماتُ الرّاهبةَ، التي لم تكن تجرؤ على الاعتراض، بنفس الإجراءات التّزيينية التي كنّ يخصصن بها هيلين كلّ مساء قبل بداية لعبة الحبّ. وخلال ذلك كانت النّايات تتنهّد برقّة وتتضوع رائحةُ خشب الصّندل المحروق وتنبعث رائحة الشّمع المُذاب من المشاعل المعلّقة إلى الجدران. وعندما تمدّدت صوفيا أخيراً، مبلبلة بهذا الإجراء الجديد عليها، في

الأريكة ولمحت وجهها الثّابت في المرايا المعدنية، وجدت صعوبة في تعرّف نفسها ورأت أنّها أضحت أجمل من أيّ وقت سبق. أحسّت بنفسها خفيفة، سعيدة أن تحيا، غير أنّها لامت نفسها في الأوان ذاته على شعورها بهذه الرّاحة وعلى ما أحسّت به من طمأنينة. لكنّ أختها لم تهبها ما يكفي من الوقت لحلّ مشكل الصّراع القائم بين أحاسيسها. اقتربت منها وهي تُداعبها بكلمات رقيقة فأسمعتها عن جمالها كلاماً عجباً ملتهباً رفضته صوفيا المبلبلة رفضاً باتّاً. تبادلت المنافقتان القُبل مرّة ثانية، واحدة مرتعشة قلقاً وضيقاً والأخرى يرجّها التعجُّل ورغبةٌ قبيحة. ثمّ أوقدت هيلين المشاعل واختفت مثل شبح في الغرفة المجاورة لتشهدَ المشهدَ الذي تخيلته بهذا القدر من الجسارة.

غير أنّ بائعة الهوى وجدت الوقت لإخبار سيلفاندر بالمغامرة الغريبة التي تنتظره ونصحته أن يُعامل المتعجرفة في البداية بلين شديد حتى يُطمئنها ويُخرجها من تحوّطها. مَثُلَ الرّجل الشّاب أمام صوفيا سعيداً وراغباً في الفوز بمعركة هي على هذا القدر من الأصالة. حملت صوفيا كفّها اليُسرى لا إرادياً لخنجرها الذي من دوره حمايتُها. لكنها لاحظت، مُفاجأةً، أنّ هذا العاشق الذي

كانت تتصوّره وقحاً، تقدّم نحوها في منتهى الكياسة. ووفقاً لتعليمات هيلين الدّقيقة، تجنّب أخذ الفتاة اللاهثة بين ذراعيه أو أن يُخاطبها بكلام مُبتذل. بدأ بالجثوّ على ركبته أمامها، باحترام شديد، ثمّ أمسك بسلسة ذهبية ثقيلة وبمعطف مُخمليّ منسوج من حرير بروفنسالي من كفّ سائسه الذي انسحب على الفور، وطلب الإذن من صوفيا أن يُلبسها المعطف ويضع العقد حول جيدها. لم يكن بإمكانها إلّا أن تستجيب لهذا المبلغ من الكياسة فتركته يُقلّدها العقد ويُلبسها الكساء الفخم دون أدنى مُقاومة، لكن ليس دون أن تشعر على قفاها بانزلاق المداعَبَة الرّقيقة لأصابع الشابّ الحارقة، مرفوقة في نفس الآن ببرودة المعدن. بيد أنّ سيلفاندر ما دام لم يتخلّ قيد أنملة عن تحفّظه، فإنّه لم يكن لصوفيا من مبرّر كي تغضب؛ فهو بدلاً من أن يضغط عليها، اكتفى الماكر بالانحناء أمامها مرّة ثانية قائلاً بطريقة مُلتبسة إنّه يرى نفسه غير أهلٍ للجلوس إلى مائدتها وهو على هذه الحال من اتّساخ ملابسه التي كساها الغبار، فسألها إذاً الإذن للذّهاب، بدءاً، للاغتسال. نادت صوفيا، منزعجةً، الخادمات وطالبتهنّ بقيادة سيلفاندر إلى غرفة الحمّام. واستجابة لأمر سرّي صدر لهنّ من سيدتهنّ، تظاهرن بالتّضايق من

كلمات صوفيا، لكنّهن خلعن بسرعة ملابس الشابّ الذي سرعان ما غدا كامل العري أمامها، جميلاً كتمثال أبولون الوثنيّ الذي كان ينتصب قديماً في ساحة السّوق قبل أن يأمر الأسقف بتحطيمه. بعد ذلك عطّرنه وغسلن قدميه بالماء السّاخن ثم ضفرن له على مهل، باسمات، إكليلاً من الورود على شعره وألبسنه في الأخير لباساً بهي الألوان. وعندما تقدّم نحو صوفيا في ملابسه الجديدة، رأت أنّه غدا أجمل ممّا سبق. لكن عندما انتبهت أنّ انجذابها للجمال الفريد للشّابّ زاد، عقدت ما بين حاجبيها وتأكّدت ما إن كان الخنجر لا يزال في متناول يدها. بيد أنّها لم تكن لها حاجة في استعماله ما دام الفتى المحبوب كان يُحادثها في مواضيع بلا عواقب، واقفاً على نفس المسافة المحترمة التي كان العلماء الأطبّاء في التّكية يقفونها منها، فلم تَسنح لها بعدُ فرصةُ تقديمها لأختها المختبئة بجانبها مثالاً على الصّلابة الأنثوية، التي صار الآن غضبُها منها أكثر من ارتياحها. فللدّفاع عن الفضيلة يكون لزاماً أن تتعرّض قبل ذلك للتّهديد. لكنّ شغف سيلفاندر رفض الالتجاء إلى الاقتحام، فاكتفى نسيمُ دمائته أن هبّ للتّخفيف من برودة كلامه، ولم تزد النّايات -وهي ترفع من نبرها في الغرفة

المجاورة شيئاً فشيئاً- على أن أصدرت لغة أشدّ رقّة ممّا تتلفّظ به الشّفتان القرمزيتان والحسيتان لهذا الشّاب الفاتن. كان يتحدّث دون انقطاع عن الحروب والبعثات العسكرية، تماماً كما لو كان على مائدة برفقة رجال، فمثّل لا مُبالاتِهِ بإتقان حتى أنّه أذهب كلّ تحرّز عن صوفيا. تذوّقت من دون تردّد الأكلات المتبّلة بقوة والخمور المخدّرة بمكر. وعندما استبدّ بها التعجّل وحتى الانزعاج من امتداد وقت هذا البرود الذي يمنعها من أن تُثبت صلابة فضيلتها وأن تُبديَ أمام أختها سُخطها النّبيل، التجأت في الأخير هي نفسها إلى استثارة الخطر. عثرت مُصادفة في عمق حنجرتها على ضحكة أدهشتها هي قبل أيٍّ كان، واستولت عليها رغبة ماكرة في أن تُظهر غبطة ضافية، وأن تُطلق العنان لفورانها، لأنّ مُنتصف اللّيل يقترب، وخنجرها يُوجد في مُتناول كفّها، في حين أنّ الشّاب المشهور بخطورته بدا أبرد من حديد سلاحها. اقتربت منه أكثر فأكثر ثمّ انثنت إلى الوراء، آملة في منح فضيلتها حافزاً قوياً للمقاومة، غيرَ عالمةٍ أنّها إذ تتصرّف بهذه الطّريقة إنّما تلتجئ دون أن تعي ذلك إلى نفس وسائل الغواية التي كانت تستعملها أختُها، بائعةُ الهوى، حبّاً في المال وفي مُعاقرة اللّذة.

لكن، وكما يقول مَثَلٌ حكيم: تَجنّبْ إغواء الشّيطان أو سَيأخذ بخناقك. . . هذا ما أقدمت عليه، مع ذلك، البطلة الشديدة الوثوق في نفسها. ولكونها قليلةَ الاعتياد على شرب النّبيذ لم يُخامرها شكّ في تأثيره الباعث على الفسق، ولأنّها مُثمَلةٌ بالانبعاثات المعطّرة الصّاعدة من مجمرات حرق البخور والتي تغدو أكثر ثقلاً فأكثر، وقد أرخت أعصابَها موسيقى النّايات المسكرة، فقد أخذت حواسّها تتبلبل رويداً رويداً. غدت ضحكتها تمتمة وفورتُها رغبةً. لا أحد من دكاترة هذه الكلية أو تلك بِقادرٍ على أن يُؤكّد أمام محكمةٍ ما إذا كان قد حصل لها الأمرُ وهي مستيقظة أم نائمة، في كامل وعيها أم سَكرَى، ولا إن كان قد حصل بعد دفاع عن النّفس أم عن طيب خاطر؛ لكن، وقبل حلول منتصف اللّيل بوقت طويل، حصل ما أراد اللّه أو عدوُّ الله (الشّيطان) أن يحصل بين امرأة ورجل. وقع فجأة من الفستان المحلول الخنجرُ مُصدياً على البلاطات الرّخامية، ومن الغريب أنّ الرّاهبة المتداعية لم تلتقطه لتُشهره في وجه الوقح وكأنّها لوكريشا[1] جديدة، ولم يُسمع من الغرفة المجاورة بُكاءٌ

(1) لوكريشا (Lucretia)، امرأة رومانية طعنت نفسها بعد أن اغتُصبت، مخافة أن تُتّهم بالفسق. (المترجم)

ولا ضجيجُ صراع. وعندما ولجت المومس المنتصرة الغرفة الزّوجية مصحوبة بخادماتها وأمالت بحبّ استطلاع مشعلاً على سرير المنهزمة، لم تُبدِ صوفيا انسحاقاً ولا تبكيتاً للضّمير. جعلت الخادمات الوقحات، بحسب التّقليد الوثنيّ، ينثرن على السّرير وروداً أشدّ حمرة من الخدّين المورّدين للفتاة الشّابة التي انتبهت، لكن بعد فوات الأوان، إلى المصيبة التي حلّت بأنوثتها. بيد أنّ هيلين احتضنت أختها بحرارة بين ذراعيها، وجعلت نغمات النّايات والدّفوف تعلو من الغرفة المجاورة مُبتهجة كما لو كان بان[1] قد بُعث من جديد في العالم المسيحيّ. انخرطت الخادمات، عاريات بوقاحة، في الرّقص مادحات إيروس، الإله المُحقَّر. بعد ذلك أوقدت الفرقة الباخوسية المضطرمة ناراً من خشب مُعطّر أحرقت ألسنةُ لهبها النّهمةُ المُسوح التي تمّت السّخرية منها لوجودها في مكان المتعة الجسدية. أمطرن بالورود نفسها المتهتّكتين القديمةَ والحديثة؛ هيلين وصوفيا التي رفضت الاعتراف بهزيمتها وطفِقت تبتسم بسمة صفراء كما لو

(1) بان (Pan)، في الميثولوجيا الإغريقية هو إله المراعي والصيد البرّي، يُصوّر بجلد الماعز وقرونها وقوائمها. يُذكر في الأساطير القديمة مُصاحِباً للأدب والموسيقى الرّعويَّين. (المترجم)

كانت قد قدّمت نفسها للفتى الجميل عن طيب خاطر. وبالنّظر إليهما هكذا جنباً إلى جنب، مُتضرّجتين معاً، إحداهما من العار والثّانية من الفخر، لم يكن بالإمكان تمييز صوفيا من هيلين، المترهبنة الزّائفة من بائعة الهوى، فجعل نظر الفتى يتنقّل بريبة بينهما، مُؤجَّجاً برغبة صارت الآن أكثر تجبّراً.

وخلال ذلك فتحت الخادمات أبواب القصر ونوافذه وسط جلبة قوية، فاقتربت طيور اللّيل وانفجرت ضاحكة عندما علمت بما حصل. انتشر الخبر مثل طلقة بارود، فما أن حلّ الفجر حتى كان الجميع على علم بالنّصر الذي أحرزته هيلين على صوفيا المترهبنة، وحقّقه الفسق على العفّة. لكنّ الأدهى من ذلك أنّ الرّجال ما أن علموا بسقوط هذه العفيفة التي طالما أرهبتهم بتمنّعها، حتى سارعوا مُضطرمين فاستقبلتهم صوفيا بحفاوة -لنعترف بذلك وإن كان فيه عارٌ لها- لأنّها كانت قد غيرت من مزاجها في نفس الوقت الذي غيّرت فيه ملابسها، فبقيت إلى جانب أختها ساعية إلى مُضارعتها في اضطرامها وفي حماسة حبّها. كان خصامهما وتنافسهما قد أدركا نهايتهما لحظتئذ. ومنذ أن شرعتا معاً تُمارسان تجارتهما المُخجلة، جعلتا تعيشان معاً في تناغم كامل. راحتَا

تُصفّفان شعرهما بنفس الطّريقة وتتحلّيان بنفس الحلّي وتتزينان بنفس الشّاكلة. والآن وقد أضحت ضحكتهما هي نفسها وتتفوّهان بنفس كلمات الغرام، استعَرَت عند الفُسّاق لعبةُ شهوة لا تنفكّ تتجدّد، إذ جعلوا يُخمّنون من توجد بين أذرعهم، أَهيلين المومس أم صوفيا المترهبنة القديمة، اعتماداً فقط على النّظرات وعلى القُبل والمداعبات. لقد كان التّشابه بينهما من التّمام حتى أنّهم لم يكونوا يستطيعون إلّا في النّادر معرفة من يُحطّمون أنفسهم من أجلها؛ بيد أنّ الأختين العفريتتين كانتا تجدان مُتعة في تضليل الفضوليين.

وهكذا تكون هيلين قد انتصرت على صوفيا، وإن لم تكن هذه المرّةَ الأولى التي يحصل فيها مثل ذلك في هذا العالم المخيّب للآمال. انتصر الجمال على الحكمة والخطيئةُ على العفّة والجسد الغضّ على الذّهن الخائر المتعجرف. لقد تأكّدت من جديد صحّةُ ما كان أيّوب قد أبدى أسفه عليه في بُكائياته الخالدة: يعيش الشّرير في الحياة الدّنيا عيشة راضية بينما يُبهدَل النّزيه ويُسخر منه. لم يسبق لجابٍ ولا لقاطع طريق أو لصّ كنيسة؛ ولم يسبق لمتاجر في الخبز ولا في الذّهب والفضّة، ولا لتاجر أو بائع أن حصّل من الذّهب في أيّ بلدٍ أكثر ممّا

حصّلته هاتان الأختان بمتاجرتهما بجسديهما. أفرغ شُركاؤهما بين أيديهما صُرَرَ أموالهم المُترعة وجفّفوا خزائنهم العامرة، فتدفّق الذّهب والحليّ إليهما كما يتدفّق الماء الى الجدول. وبما أنّهما لم ترثا عن أمّهما جمالها فحسب، وإنّما ذهنيتها الاقتصادية أيضاً، فإنّ الأختين التّوأم لم تُبدّدا أبداً هذه الثّروات في لا شيء كما تفعل مثيلاتهما في العادة. لقد كانتا أكثر حرصاً فأعارتا ثروتهما بفوائد مرتفعة وعهدتا بها إلى مسيحيين ووثنيين ويهود كي يُزكوها لهما. كانتا تُجيدان التصرّف حتى أنّه لم يسبق في أيّ مكان أن جُمّعت رؤوس أموال بهذه الغزارة نقداً وأحجاراً كريمة وعقودَ ديون ومتاعاً مختلفاً كما جُمّعت في هذا المنزل السيّئ السّمعة. لم يكن مُثيراً للدّهشة أن تشرع بنات البلدة، وهنّ يرين أمامهنّ هذا المثال، في رفض القيام بأشغال البيت والتّنكيل بأصابعهنّ في المغسل. وسُرعان ما نالت هذه المدينة، بسبب الوجود المنحوس لهاتين الأختين المتصالحتين بين جُدرانها، مُقارنة بباقي المدن، سُمعةَ مدينة عمورة[1].

---

(1) عمورة (Gomorrhe)، تُذكَر في الكتاب المقدّس مع مدينة سدوم، وقد حطّمهما (مطر من نار) أرسله اللّه عليهما في زمن إبراهيم الخليل، بسبب الأفعال الجنسية القبيحة لساكنيها. (المترجم)

لكن، وكما يقول مثل قديم آخر، فإنّ الجرّة لكثرة ما تَرِدُ الماء تنتهي بأن تنكسر. لذلك كان على هذه الفضيحة أيضاً أن تنتهي بطريقة تُناسبها في ضخامتها. كان مآل الرّجال بعد السّنوات الطّوال أن تعبوا من هذا اللّغز الذي ما عاد يتجدّد. أضحى الزّوار نادرين وانطفأت المشاعل قبل الأوان. لقد أخذ الجميع علماً، حتى قبل الأختين، بما كانت المرايا تحكيه بخفوت للمشاعل المترنّحة: لقد تغضّن الجلد تحت عيونهما اللّامعة وجعل أديمهما اللّؤلؤي يكمَد، بعد أن أخذ في الارتخاء رويداً رويداً. عبثاً التجأتا إلى العطّار لإصلاح ما أفسده الدّهر؛ عبثاً صبغتا الخصلات الرّمادية لصدوغهما، ومرّرتا على تجاعيدهما مُدى عاجية وصبغتا شفاههما المتعبة. يستحيل الاستمرار لمدّة أطول في إخفاء أثر السّنوات الطّوال التي عاشتاها. وما أن فارقهما شبابهما حتى ملّهما العشّاق. فبينما كانتا تذبلان، جعل جيل جديد من الفتيات ينمو كلّ سنة في الشّوارع المجاورة، فبرزت مخلوقات رقيقة بأثداء نافرة وخصلات مضفورة، تُثير عذريتهنّ فضول الرّجال. اكتسح الصّمت منزل ساحة السّوق واجتاح الصّدأ مفصلات بابه. خبت شذواته وما عادت المدفأة تُدفئ أحداً واستمرّت الأختان التّوأم تُزينان

جسديهما سدى. التجأ الموسيقيون وقد تخلّوا عن فنّهم الآسر، بعد أن لم يعد أحد يأتي لسماعهم، إلى جولات من لعبة النّرد، لتجزية الوقت، وأصابت السّمنة البوّاب لكثرة سباته بعد أن لم يعد الزّوار يوقظونه كلّ حين. أصبحت مُتعة الأختين الوحيدة هي التّفكير في ماضيهما، جالستين، سكرانتين، إلى المائدة الطّويلة التي طالما هزّتها ضحكات المدعوين، محرومتين من رفقة أيّ عاشق. فكّرت صوفيا بالخصوص، بحنين، في الزّمن الذي كانت تعيش فيه حياة حكيمة حبيبةً إلى الله، بعيداً عن ملذّات هذه الدّنيا. كانت أحياناً تُعيد فتح كتب دينية يغشاها الغبار، لأنّ الحكمة عادة ما تأتي النّساءَ بعد أن يفقدن جمالهنّ. شيئاً فشيئاً انعكست الآية بطريقة مُدهشة، فتبدّلت الأمور في ذهن الأختين التّوأم: فإن كانت هيلين المتهتّكة، زمن شبابهما، هي التي انتصرت على صوفيا المترهبنة الجديدة، فإنّ صوفيا هذه المرّة هي التي جعلت أختها تُنصت إليها وهي تعظها بضرورة التّخلي عن حياة الفجور. أجل، حصل ذلك، وإن بعد فوات الأوان وبعد أن كانت قد غطست هي نفسها في الفجور. رآهما النّاس يوماً مُستغرقتين في ذهاب وجيئة مُلغزين. كانت صوفيا هي التي ابتدأت لوحدها الانسلال

إلى التّكية طالبة الصّفح عن سلوكها المخزيّ، ثمّ عادت إليها مصحوبة بهيلين. وعندما صرّحتا معاً أنّهما ترغبان في وهب كلّ ما تملكان إلى هذه الدّار، لم يشك في صدق توبتهما حتى أشدّ النّاس ارتياباً.

وبينما كان البوّاب، ذات صباح، لا يزال مستغرقاً في نومه، إذا بامرأتين ترتديان ملابس مُتواضعة وجهاهما مُقنّعان، تخرجان كنحو شبحَين من المسكن الجليل، جاعلتين بمظهرهما المتواضع الوجل، مَنْ يرونهما يتذكّرون هذه المرأة، أمَّهما، التي كانت منذ خمسين سنة خلت قد عادت إلى زنقتها الحقيرة بعد أن تبدّدت ثروتها العابرة. دلفتا خفية من باب مُوارب، فجعلت تانك اللّتان طالما استرعتا انتباه كلّ البلد بتنافسهما المتعجرف، تُخفيان وجهيهما حتى لا يتعرّفهما أحد، وحتى تُحطّما الجسر خلفهما. ومن المفروض أن تكونا قد توفيتا منسيتين، في دير خارج البلاد، لا يعرفه أحد، بعد سنوات من التّقاعد الصّامت، لا يعرف أحد حقيقة أصلهما. لكنّ الثّروات التي أهدتاها لهذا المنفى التعبُّدي كانت معتبرة، فاستخلصوا أموالاً طائلة من بيع السّبائك والقلائد والجواهر وعقود الدّيون، حتى أنّهم قرّروا أن يبنوا، تزييناً للمدينة وتعزيزاً لمجدها، تكية جديدة رائعة،

تفوق في جمالها وفي أبعادها كلّ التّكيات التي سبق لهم رؤيتها في آكتين. وضع مهندس من الشّمال تصميمها وطفِقت فرق من العمّال تشتغل في بنائها دون انقطاع مدّة عشرين سنة. وفي الأخير، عندما رُفعت هياكلها، شرع النّاس يتأمّلون باندهاش هذه البناية العملاقة. كان المتعارف عليه في البلد أن لا تكون للبناية سوى منارة واحدة سميكة ومربّعة الشّكل، بيد أنّه توجد هنا منارتان اثنتان منقوشتان، رشاقتهما أنثوية، ومُتشابهتان في أبعادهما ورقّة نقوشهما حتى أنّ النّاس، منذ اليوم الأوّل، أطلقوا عليهما لقب «الأختان» ربّما فقط بسبب التّشابه القائم بين شكليهما، لكن ربّما أيضاً لأنّ الشّعب الذي أحبّ دائماً الاحتفاظ عبر العصور بذكرى الأمور الجليلة، لم يكن يُريد أن ينسى حكاية الأختين التّوأم التي يندر مثلُها، والتي كان يحكيها لي هذا المدينيّ الشّهم وقد حلّقت به الخمرة، في منتصف الليل، وعلى ضوء القمر.

مكتبة
t.me/t_pdf

المحتويات

الليلة المُذهلة 5

حكاية شفقية 121

التّوأم (حكاية طريفة) 179

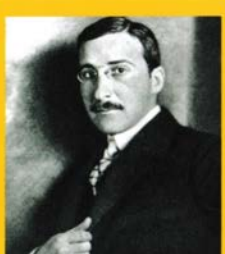

(1942 - 1881)

ستيفان زفايغ، أديب ومسرحيّ وصحافيّ وكاتب سيَر نمساويّ، يُعدّ من أهم كتّاب زمانه، برَع في كتابة كلّ الأنواع الأدبية. نحن مدينون له بمُنجز ضخم يتألّف من عشرات الكتب التي بوّأته مجده الرّوائي. إنّه أحد الكتّاب النّادرين الذين جُلّت مكانتهم قيدَ حياتهم، واستمرّت كذلك إلى وقتنا الرّاهن، بفضل طريقته الفريدة في وصف عمق نفسية الشّخصيات وكشف النقاب عن الطبيعة البشرية اعتماداً على كلمات قليلة مُنتقاة.

❖ ❖ ❖

كيف يُمكن للرّغبة والشّغف المتجذّرَين في عمق كلّ كائن بشريّ أن يجعلاه يكتشف، في لحظة، نفسَه وأن يُغيّرا مصيره؟ ذاك هو السّر الذي تسعى إلى كشفه هذه القصص الثلاث التي يتألّف منها الكتاب: التيه الليلي لرجل يكتشف أثناء احتكاكه بأشخاص مشبوهين وبمومسات جزءاً من كيانه فتجتاحه أحاسيس عارمة؛ لغز امرأة شابة تُسلِّم نفسها لمراهق، مُتسترّة على هويتها؛ وصراع أختين توأم بالغتَي الجمال، إحداهما متديّنة والأخرى فاسقة، تتنازعان المرتبة الأولى منذ طفولتهما، تلجأ إحداهما إلى الحيلة والأخرى إلى الفضيلة.

تُشكّل هذه المجموعة القصصية لحظة استمتاع حقيقية تدور حول حالات شغف عميقة ومدمّرة. من المستحيل السّأم من موهبة ستيفان زفايغ، هذا العالِم الرقيق بالنفسية البشرية. إنّه أحد روائيي عصرنا الكبار.

t.me/t_pdf

ISBN 978-9953-68-883-1

المركز الثّقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com